تفسير سورة الرعد

قد وقع الخلاف هل هى مكية أو مدنية ؟ فروى النحاس فى ناسخه عن ابن عباس ؛ أنها نزلت بمكة : وروى أبو الشيخ وابن مردويه عنه أنها نزلت بالمدينة . وممن ذهب إلى أنها مكية سعيد بن جبير والحسن وعكرمة وعطاء وجابر بن زيد ، وممن ذهب إلى أنها نزلت بالمدينة ابن الزبير والكلبى ومقاتل . وقول ثالث : أنها مدنية إلا آيتين منها فإنهما نزلتا بمكة . وهما قوله تعالى : ﴿ **ولو أن قرآنا سيرت به الجبال** ﴾ . وقيل : قوله : ﴿ **ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة** ﴾ وقد روى هذا عن ابن عباس أيضا وقتادة .

وقد أخرج ابن أبى شيبة والمروزى فى الجنائز عن جابر بن زيد قال : كان يستحب إذا حضر الميت أن يقرأ عنده سورة الرعد [1] فإن ذلك يخفف عن الميت ، وإنه أهون لقبضه وأيسر لشأنه.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ **الٓمٓرٰ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (١) اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ (٢) وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٣) وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٤)** ﴾ .

قوله : ﴿ **المر** ﴾ . قد تقدم الكلام فى هذه الحروف الواقعة فى أوائل السور بما يغنى عن الإعادة ، وهو اسم للسورة مرفوع المحل على أنه خبر مبتدأ محذوف أو على أنه مبتدأ خبره ما بعده ، والتقدير على الأول : هذه السورة اسمها هذا ، والإشارة بقوله: ﴿ **تلك** ﴾ إلى آيات هذه السورة، والمراد بالكتاب : السورة أى تلك الآيات آيات السورة الكاملة العجيبة الشأن ، ويكون قوله :﴿ **والذى أنزل إليك من ربك الحق** ﴾ مرادًا به القرآن كله، أى هو الحق البالغ فى اتصافه بهذه الصفة ، أو تكون الإشارة بقوله : ﴿ **تلك** ﴾ إلى آيات القرآن جميعه على أن المراد بالكتاب جميع القرآن . ويكون قوله : ﴿ **والذى أنزل إليك من ربك الحق** ﴾ جملة مبينة لكون

(١) ابن أبى شيبة ٣/ ٢٣٧ .

هذا المنزل هو الحق . قال الفراء: ﴿ **والذى** ﴾ رفع بالاستئناف وخبره : ﴿ **الحق** ﴾ قال : وإن شئت جعلت ﴿ **الذى** ﴾ خفضًا نعتاً للكتاب ، وإن كانت فيه الواو كما فى قوله :

إلى المَلِكَ القَرْمِ وابن الهُمَامِ

ويجوز أن يكون محل ﴿ **والذى أنزل إليك** ﴾ الجر على تقدير: وآيات الذى أنزل إليك ، فيكون الحق على هذا خبرا لمبتدأ محذوف ﴿ **ولكن أكثر الناس لا يؤمنون** ﴾ بهذا الحق الذى أنزله الله عليك. قال الزجاج: لما ذكر أنهم لا يؤمنون ذكر الدليل الذى يوجب التصديق بالخالق فقال: ﴿ **الله الذى رفع السموات بغير عمد** ﴾ والعمد : الأساطين جمع عماد ، أى قائمات بغير عمد تعتمد عليه ، وقيل : لها عمد ولكن لا نراه . قال الزجاج : العمد : قدرته التى يمسك بها السموات، وهى غير مرئية لنا ، وقرئ : « عمد » على أنه جمع عمود يعمد به ، أى يسند إليه، قال النابغة :

وخبر الجن أنى قد أذنت لهم يبنون تدمر بالصفاح والعمد [1]

وجملة ﴿ **ترونها** ﴾ مستأنفة استشهاد على رؤيتهم لها كذلك . وقيل : هى صفة لعمد . وقيل : فى الكلام تقديم وتأخير ، والتقدير : رفع السموات ترونها بغير عمد ، ولا ملجئ إلى مثل هذا التكلف ﴿ **ثم استوى على العرش** ﴾ أى استولى عليه بالحفظ والتدبير ، أو استوى أمره، أو أقبل على خلق العرش ، وقد تقدم الكلام على هذا مستوفى ، والاستواء على العرش صفة لله سبحانه بلا كيف كما هو مقرر فى موضعه من علم الكلام ﴿ **وسخر الشمس والقمر** ﴾ أى ذللهما لما يراد منهما من منافع الخلق ، ومصالح العباد ﴿ **كل يجرى لأجل مسمى** ﴾ [2] أى كل من الشمس والقمر يجرى إلى وقت معلوم، وهو فناء الدنيا وقيام الساعة التى تكوّر عندها الشمس ويخسف القمر ، وتنكدر النجوم وتنتثر . وقيل : المراد بالأجل المسمى درجاتهما ومنازلهما التى تنتهيان إليها لا يجاوزنها ، وهى سنة للشمس ، وشهر للقمر ﴿ **يدبر الأمر** ﴾ أى يصرفه على ما يريد ، وهو أمر ملكوته وربوبيته ﴿ **يفصل الآيات** ﴾ أى يبينها ، وهى الآيات الدالة على كمال قدرته وربوبيته ومنها ما تقدم من رفع السماء بغير عمد ، وتسخير الشمس والقمر وجريهما لأجل مسمى ، والجملتان فى محل نصب على الحال أوخبران لقوله : ﴿**الله الذى رفع** ﴾ على أن الموصول صفة للمبتدأ ، والمراد من هذا تنبيه العباد أن من قدر على هذه الأشياء فهو قادر على البعث والإعادة ، ولذا قال : ﴿ **لعلكم بلقاء ربكم توقنون** ﴾ أى لعلكم عند مشاهدة هذه الآيات توقنون بذلك لا تشكون فيه ولا تمترون فى صدقه .

ولما ذكر الدلائل السماوية أتبعها بذكر الدلائل الأرضية فقال : ﴿ **وهو الذى مد الأرض** ﴾

---

(١) تَدْمُر : بلد قديمة مشهورة بالشام . زُعم أن الجن بنتها لسليمان عليه السلام ، وقيل : بل هى قبله . معجم البلدان٢/ ١٧ .

(٢) فى المخطوطة : « إلى أجل مسمى » .

قال الفراء : بسطها طولاً وعرضاً. وقال الأصم : إن المد : هو البسط إلى ما لا يدرك منتهاه ، وهذا المد الظاهر للبصر لا ينافى كريتها فى نفسها لتباعد أطرافها ﴿**وجعل فيها رواسى** ﴾ أى جبالاً ثوابت ، واحدها راسية لأن الأرض ترسو بها ، أى تثبت . والإرساء : الثبوت . قال عنترة :

فَصَبَرت عـارِفةً لذلك حُرَّةً ترْسُو إذَا نَفْسُ الجَبَانِ تطلع

وقال جميل :

أُحِبُّها والذى أرْسَى قواعِدَهُ حَتَى إذا ظَهَرَتْ آياتُهُ بَطـنَا

﴿ **وأنهارا** ﴾ أى مياها جارية فى الأرض فيها منافع الخلق ، أو المراد جعل فيها مجارى الماء ﴿ **ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين** ﴾ من كل الثمرات متعلق بالفعل الذى بعده ، أى جعل فيها من كل الثمرات ﴿ **زوجين اثنين** ﴾ الزوج يطلق على الاثنين وعلى الواحد المزاوج لآخر، والمراد هنا بالزوج الواحد ، ولهذا أكد الزوجين بالاثنين لدفع توهم أنه أريد بالزوج هنا الاثنين ، وقد تقدم تحقيق هذا مستوفى ، أى جعل كل نوع من أنواع ثمرات الدنيا صنفين ، إما فى اللونية كالبياض والسواد ونحوهما ، أو فى الطعمية كالحلو والحامض ونحوهما، أو فى القدر كالصغر والكبر ، أو فى الكيفية كالحر والبرد .

قال الفراء : يعنى بالزوجين هنا : الذكر والأنثى ، والأول أولى ﴿ **يغشى الليل النهار** ﴾ أى يلبسه مكانه فيصير أسود مظلمًا بعد ما كان أبيض منيرًا ، شبه إزالة نور الهدى بالظلمة بتغطية الأشياء الحسية بالأغطية التى تسترها ، وقد سبق تفسير هذه فى الأعراف ﴿ **إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون** ﴾ أى فيما ذكر من مد الأرض وإثباتها بالجبال . وما جعله الله فيها من الثمرات المتزاوجة ، وتعاقب النور والظلمة آيات بينة للناظرين المتفكرين المعتبرين .

﴿ **وفى الأرض قطع متجاورات** ﴾ هذا كلام مستأنف يشتمل على ذكر نوع آخر من أنواع الآيات ، قيل : وفى الكلام حذف ، أى قطع متجاورات ، وغير متجاورات ، كما فى قوله : ﴿ سرابيل تقيكم الحر ﴾ [النحل : ٨١] أى وتقيكم البرد . قيل: والمتجاورات : المدن وما كان عامرًا، وغير المتجاورات : الصحارى وما كان غير عامر . وقيل : المعنى : متجاورات متدانيات، ترابها واحد وماؤها واحد . وفيها زرع وجنات ، ثم تتفاوت فى الثمار فيكون البعض حلوًا والبعض حامضًا ، والبعض طيبًا والبعض غير طيب ، والبعض يصلح فيه نوع والبعض الآخر نوع آخر ﴿**وجنات من أعناب** ﴾ والجنات : البساتين ، قرأ الجمهور برفع ﴿**جنات**﴾ على تقدير: وفى الأرض جنات ، فهو معطوف على قطع متجاورات. أو على تقدير: وبينها جنات . وقرأ الحسن بالنصب على تقدير : وجعل فيها جنات ، وذكر سبحانه الزرع بين الأعناب والنخيل ، لأنه يكون فى الخارج كثيرًا كذلك ، ومثله فى قوله سبحانه : ﴿ جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعا ﴾ [الكهف: ٣٢] .

﴿ **صنوان وغير صنوان** ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمر وحفص ﴿ **وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان** ﴾ برفع هذه الأربع عطفا على جنات، وقرأ الباقون بالجر عطفا على أعناب . وقرأ مجاهد والسلمى بضم الصاد من صنوان، وقرأ الباقون بالكسر ، وهما لغتان .

قال أبو عبيدة : صنوان جمع صنو ، وهو أن يكون الأصل واحدًا ، ثم يتفرع فيصير نخلاً، ثم يحمل ، وهذا قول جميع أهل اللغة والتفسير . قال ابن الأعرابى : الصنو : المثل ومنه قوله ﷺ : « عم الرجل صنو أبيه » (١) ، فمعنى الآية على هذا : أن أشجار النخيل قد تكون متماثلة وقد لا تكون . قال فى الكشاف : والصنوان جمع صنو وهى النخلة لها رأسان وأصلها واحد . وقيل : الصنوان المجتمع ، وغير الصنوان المتفرق. قال النحاس : وهو كذلك فى اللغة، يقال للنخلة إذا كانت فيها نخلة أخرى أو أكثر : صنوان ، والصنو: المثل ولا فرق بين التثنية والجمع إلا بكسر النون فى المثنى ، وبما يقتضيه الإعراب فى الجمع .

﴿ **يسقى بماء واحد** ﴾ قرأ عاصم وابن عامر :﴿ **يسقى** ﴾ بالتحتية ، أى يسقى ذلك كله ، وقرأ الباقون بالفوقية بإرجاع الضمير إلى جنات ، واختاره أبو حاتم وأبو عبيد وأبو عمرو . قال أبو عمرو : التأنيث أحسن لقوله : ﴿ **ونفضل بعضها على بعض فى الأكل** ﴾ ولم يقل : بعضه. وقرأ حمزة والكسائى: « يفضل » بالتحتية كما فى قوله: ﴿ **يدبر الأمر يفصل الآيات** ﴾ وقرأ الباقون بالنون على تقدير : ونحن نفضل .

وفى هذا من الدلالة على بديع صنعه ، وعظيم قدرته ما لا يخفى على من له عقل ؛ فإن القطع المتجاورة والجنات المتلاصقة المشتملة على أنواع النبات مع كونها تسقى بماء واحد وتتفاضل فى الثمرات فى الأكل ، فيكون طعم بعضها حلواً والآخر حامضًا، وهذا فى غاية الجودة وهذا ليس بجيد ، وهذا فائق فى حسنه ، وهذا غير فائق ، مما يقطع من تفكر واعتبر ونظر نظر العقلاء أن السبب المقتضى لاختلافها ليس إلا قدرة الصانع الحكيم جل سلطانه وتعالى شأنه ، لأن تأثير الاختلاف فيما يخرج منها ويحصل من ثمراتها لا يكون فى نظر العقلاء إلا لسببين : إما اختلاف المكان الذى هو المنبت، أو اختلاف الماء الذى تسقى به ، فإذا كان المكان متجاوراً ، وقطع الأرض متلاصقة ، والماء الذى تسقى به واحدًا ، لم يبق سبب للاختلاف فى نظر العقل إلا تلك القدرة الباهرة والصنع العجيب . ولهذا قال الله سبحانه : ﴿ **إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون** ﴾ أى يعملون على قضية العقل وما يوجبه غير مهملين لما يقتضيه من التفكر فى المخلوقات والاعتبار فى العبر الموجودات .

وقد أخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **الـمر** ﴾ قال : أنا الله أرى.

---

(١) أحمد (٢/ ٣٢٢ ، ٣٢٣) ومسلم فى الزكاة (٩٨٣ / ١١) وأبو داود فى الزكاة (١٦٢٣) والترمذى فى المناقب (٣٧٦١) وقال : « هذا حديث حسن صحيح غريب لا نعرفه من حديث أبى الزناد إلا من هذا الوجه » ، كلهم عن أبى هريرة .

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن مجاهد ﴿ **المر** ﴾ فواتح يفتتح بها كلامه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه فى قوله : ﴿ **تلك آيات الكتاب** ﴾ قال : التوراة والإنجيل ﴿ **والذى أنزل إليك من ربك الحق** ﴾ قال : القرآن . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن قتادة نحوه .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **رفع السموات** [١] **بغير عمد ترونها** ﴾ قال : وما يدريك لعلها بعمد لا ترونها . وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وأبو الشيخ عنه فى الآية قال : يقول لها عمد ولكن لا ترونها .يعنى الأعماد . وأخرج ابن جرير عن إياس ابن معاوية فى الآية قال : السماء مقببة على الأرض مثل القبة . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: السماء على أربعة أملاك ، كل زاوية موكل بها ملك . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ فى قوله ﴿**لأجل مسمى** ﴾ قال : الدنيا . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله: ﴿ **يدبر الأمر**﴾ قال : يقضيه وحده . وأخرج ابن أبى حاتم عن عبد الله بن عمرو قال : الدنيا مسيرة خمسمائة عام ؛ أربعمائة خراب ، ومائة عمران ، فى أيدى المسلمين من ذلك مسيرة سنة . وقد روى عن جماعة من السلف فى ذلك تقديرات لم يأت عليها دليل يصح .

وأخرج ابن جرير عن على بن أبى طالب قال : لما خلق الله الأرض قمصت . وقالت : أى رب ، تجعل علىّ بنى آدم يعملون علىّ الخطايا ويجعلون علىّ الخبث ، فأرسل الله فيها من الجبال ما ترون وما لا ترون ، فكان إقرارها كاللحم ترجرج. وأخرج أبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿ **يغشى الليل النهار** ﴾ أى يلبس الليل النهار .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله :﴿ **وفى الأرض قطع متجاورات** ﴾ قال : يريد الأرض الطيبة العذبة التى يخرج نباتها بإذن ربها ، تجاورها السبخة القبيحة المالحة التى لا تخرج ، وهما أرض واحدة ، وماؤها شىء واحد ، ملح أو عذب ففضلت إحداهما على الأخرى . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن قتادة فى الآية قال: قرئ : «متجاورات قريب بعضها من بعض » .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى الآية قال : الأرض تنبت حلوًا ، والأرض تنبت حامضًا ، وهى متجاورات تسقى بماء واحد .

وأخرج الفريابى وسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن البراء بن عازب فى قوله : ﴿ **صنوان وغيرصنوان** ﴾ قال : الصنوان: ما كان أصله واحدًا وهو متفرق ، ﴿ **وغيرصنوان** ﴾ التى تنبت وحدها. وفى لفظ : صنوان : النخلة فى النخلة ملتصقة ، وغير صنوان : النخل المتفرق . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس: ﴿ **صنوان** ﴾ قال: مجتمع النخل فى أصل واحد ﴿ **وغير صنوان** ﴾ قال: النخل

(١) فى المخطوطة : « السماء » .

المتفرق . وأخرج الترمذى وحسنه ، والبزار وابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ وابن مردويه عن أبى هريرة عن النبى ﷺ فى قوله : ﴿ **ونفضل بعضها على بعض فى الأكل** ﴾ قال : « الدقل ، والفارسى ، والحلو ، والحامض » [1] . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى الآية قال : هذا حامض ، وهذا حلو ، وهذا دقل ، وهذا فارسى .

﴿ **وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ الأَغْلاَلُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٥) وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلاَتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ (٦) وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ (٧) اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ (٨) عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ (٩) سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ (١٠) لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلاَ مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ (١١)** ﴾ .

قوله : ﴿ **وإن تعجب فعجب قولهم** ﴾ أى إن تعجب يا محمد من تكذيبهم لك بعد ما كنت عندهم من الصادقين فأعجب منه تكذيبهم بالبعث ، والله تعالى لا يجوز عليه التعجب ؛ لأنه تغير النفس بشىء تخفى أسبابه وإنما ذكر ذلك ليعجب منه رسوله وأتباعه . قال الزجاج : أى هذا موضوع عجب أيضا أنهم أنكروا البعث وقد بين لهم من خلق السموات والأرض ما يدل على أن البعث أسهل فى القدرة . وقيل : الآية فى منكرى الصانع ، أى إن تعجب من إنكارهم الصانع مع الأدلة الواضحة بأن المتغير لابد له من مغير ، فهو محل التعجب ، والأول أولى لقوله : ﴿ **أإذا كنا ترابا أئنا لفى خلق جديد** ﴾ وهذه الجملة فى محل رفع على البدلية من ﴿**قولهم**﴾ ، ويجوز أن تكون فى محل نصب على أنها مقول القول ، والعجب على الأول كلامهم وعلى الثانى تكلمهم بذلك ، والعامل فى « إذا » [2] يفيده قوله : ﴿ **أإنا لفى خلق جديد** ﴾ وهو نبعث أو نعاد . والاستفهام منهم للإنكار المفيد لكمال الاستبعاد ، وتقديم الظرف فى قوله : ﴿ **لفى**

---

(١) الترمذى فى التفسير (٣١١٨) وقال : « هذا حديث حسن غريب » وابن جرير ١٣/ ٦٩ وفى إسناده سيف بن محمد الثورى قال عنه البخارى : «ضعفه أحمد » التاريخ الكبير ٤/ ١٧٢ . روى عبد الله بن أحمد بن حنبل عن أبيه أنه قال : « كذاب » . وقال أبو حاتم : « لا يكتب حديثه » وعن ابن معين : « كذاب » وقال النسائى : « ضعيف ». وقال الدارقطنى وغيره : «متروك » ميزان الاعتدال ٢/ ٢٥٦ ، ٢٥٧ .

(٢) راجع ما كتبه ابن جرير عند تفسيره لهذه الآية ١٣/ ٦٩ ، ٧٠ .

خلق ﴾ لتأكيد الإنكار بالبعث، وكذلك تكرير الهمزة فى قوله: « أإنا ». ثم لما حكى الله سبحانه ذلك عنهم حكم عليهم بأمور ثلاثة : الأول : ﴿ **أولئك الذين كفروا بربهم** ﴾ أى أولئك المنكرون لقدرته سبحانه على البعث، هم المتمادون فى الكفر الكاملون فيه . والثانى : ﴿ **وأولئك الأغلال فى أعناقهم** ﴾ الأغلال : جمع غل ، وهو طوق تشد به اليد إلى العنق ، أى يغلون بها يوم القيامة . وقيل : الأغلال أعمالهم السيئة التى هى لازمة لهم لزوم الأطواق للأعناق . والثالث : ﴿ **وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون** ﴾ لا ينفكون عنها بحال من الأحوال ، وفى توسيط ضمير الفصل دلالة على تخصيص الخلود بمنكرى البعث .

﴿ **ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة** ﴾ السيئة : العقوبة المهلكة . والحسنة : العافية والسلامة . قالوا هذه المقالة لفرط إنكارهم وشدة تصميمهم وتهالكهم على الكفر . وقيل : معنى الآية : أنهم طلبوا العقوبة قبل الحسنة، وهى الإيمان ﴿ **وقد خلت من قبلهم المثلات** ﴾ قرأ الجمهور « مَثُلات » بفتح الميم وضم المثلثة جمع مثلة كسمرة، وهى العقوبة. قال ابن الأنبارى : المثلة : العقوبة التى تبقى فى المعاقب شيئا بتغيير بعض خلقه من قولهم : مثل فلان بفلان : إذا شان خلقه بقطع أنفه وسمل عينيه وبقر بطنه . وقرأ الأعمش بفتح الميم وإسكان المثلثة تخفيفا لثقل الضمة . وفى لغة تميم بضم الميم والمثلثة جميعًا، واحدتها على لغتهم مُثْلة بضم الميم وسكون المثلثة مثل غُرْفة وغُرُفات . وحكى عن الأعمش فى رواية أخرى أنه قرأ هذا الحرف بضمها على لغة تميم . والمعنى أن هؤلاء يستعجلونك بإنزال العقوبة بهم ، وقد مضت من قبلهم عقوبات أمثالهم من المكذبين ، فما لهم لا يعتبرون بهم ، ويحذرون من حلول ما حل بهم ، والجملة فى محل نصب على الحال ، وهذا الاستعجال من هؤلاء هو على طريقة الاستهزاء كقولهم : ﴿ اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك ﴾ الآية [الأنفال : ٣٢] ﴿**وإن ربك لذو مغفرة** ﴾ أى لذو تجاوز عظيم ﴿**للناس على ظلمهم** ﴾ أنفسهم باقترافهم الذنوب ووقوعهم فى المعاصى إن تابوا عن ذلك ، ورجعوا إلى الله سبحانه ، والجار والمجرور أى على ظلمهم فى محل نصب على الحال ، أى حال كونهم ظالمين ، و« على » بمعنى : « مع » أى مع ظلمهم ، وفى الآية بشارة عظيمة ورجاء كبير ؛ لأن من المعلوم أن الإنسان حال اشتغاله بالظلم لا يكون تائبًا ، ولهذا قيل : إنها فى عصاة الموحدين خاصة . وقيل : المراد بالمغفرة هنا: تأخير العقاب إلى الآخرة ليطابق ما حكاه الله من استعجال الكفار للعقوبة وكما تفيده الجملة المذكورة بعد هذه الآية . وهى ﴿ **وإن ربك لشديد العقاب** ﴾ يعاقب العصاة المكذبين من الكافرين عقابًا شديدًا على ما تقتضيه مشيئته فى الدار الآخرة .

﴿ **ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه** ﴾ أى هلا أنزل عليه آية غير ما قد جاء به من الآيات ، وهؤلاء الكفار القائلون هذه المقالة هم المستعجلون للعذاب . قال الزجاج : طلبوا غير الآيات التى أتى بها فالتمسوا مثل آيات موسى وعيسى ، فقال الله تعالى: ﴿ **إنما أنت منذر**﴾ تنذرهم بالنار وليس إليك من الآيات شىء . انتهى . وهذا مكابرة من الكفار وعناد ، وإلا فقد

أنزل الله على رسوله من الآيات ما يغنى البعض منه ، وجاء فى ﴿ **إنما أنت منذر** ﴾ بصيغة الحصر لبيان أنه ﷺ مرسل لإنذار العباد ، وبيان ما يحذرون عاقبته ، وليس عليه غير ذلك وقد فعل ما هو عليه ، وأنذر أبلغ إنذار ، ولم يدع شيئا مما يحصل به ذلك إلا أتى به وأوضحه وكرره ، فجزاه الله عن أمته خيراً .

﴿ **ولكل قوم هاد** ﴾ أى نبى يدعوهم إلى ما فيه هدايتهم ورشادهم ، وإن لم تقع الهداية لهم بالفعل ولم يقبلوها ، وآيات الرسل مختلفة . هذا يأتى بآية أو آيات لم يأت بها الآخر بحسب ما يعطيه الله منها ، ومن طلب من بعضهم ما جاء به البعض الآخر فقد بلغ فى التعنت إلى مكان عظيم ، فليس المراد من الآيات إلا الدلالة على النبوة لكونها معجزة خارجة عن القدرة البشرية ، وذلك لا يختص بفرد منها ولا بأفراد معينة ، وقيل : إن المعنى : ﴿ **ولكل قوم هاد** ﴾ وهو الله ــ عز وجل ــ فإنه القادر على ذلك ، وليس على أنبيائه إلا مجرد الإنذار .

﴿ **الله يعلم ما تحمل كل أنثى** ﴾ الجملة مستأنفة مسوقة لبيان إحاطته بالعلم سبحانه ، وعلمه بالغيب الذى هذه الأمور المذكورة منه . قيل : ويجوز أن يكون الاسم الشريف خبراً لمبتدأ محذوف ، أى ولكل قوم هاد وهو الله . وجملة ﴿ **يعلم ما تحمل كل أنثى** ﴾ تفسير لهاد على الوجه الأخير وهذا بعيد جدا ، و« ما » موصولة ، أى يعلم الذى تحمله كل أنثى فى بطنها من علقة ، أو مضغة أو ذكر أو أنثى ، أو صبيح أو قبيح ، أو سعيد أو شقى ، ويجوز أن تكون استفهامية ، أى يعلم أى شىء فى بطنها ، وعلى أى حال هو . ويجوز أن تكون مصدرية ، أى يعلم حملها . ﴿ **وما تغيض الأرحام وما تزداد** ﴾ الغيض : النقص ، أى يعلم الذى تغيضه الأرحام ، أى تنقصه ، ويعلم ما تزداده ، فقيل : المراد نقص خلقة الحمل وزيادته كنقص إصبع أو زيادتها . وقيل : إن المراد نقص مدة الحمل على تسعة أشهر ، أو زيادتها. وقيل : إذا حاضت المرأة فى حال حملها كان ذلك نقصًا فى ولدها . وقيل : الغيض: ما تنقصه الأرحام من الدم ، والزيادة ما تزداده منه ، و « ما » فى : ﴿ **ما تغيض** ﴾ ، ﴿**وما تزداد** ﴾ تحتمل الثلاثة الوجوه المتقدمة فى: ﴿ **ما تحمل كل أنثى** ﴾ ، ﴿ **وكل شىء عنده بمقدار**﴾ أى كل شىء من الأشياء التى من جملتها الأشياء المذكورة عند الله سبحانه بمقدار ، والمقدار : القدر الذى قدره الله .

وهو معنى قوله سبحانه : ﴿ إنا كل شىء خلقناه بقدر ﴾ [القمر : ٤٩] أى كل الأشياء عند الله سبحانه جارية على قدره الذى قد سبق وفرغ منه، لا يخرج عن ذلك شىء .

﴿ **عالم الغيب والشهادة** ﴾ أى عالم كل غائب عن الحس وكل مشهود حاضر ، أو كل معدوم وموجود ولا مانع من حمل الكلام على ما هو أعم من ذلك ﴿ **الكبير المتعال** ﴾ أى العظيم الذى كل شىء دونه ، المتعالى عما يقوله المشركون ، أو المستعلى على كل شىء بقدرته وعظمته وقهره .

ثم لما ذكر سبحانه أنه يعلم تلك المغيبات لا يغادره شيء منها ، بين أنه عالم بما يسرونه فى أنفسهم وما يجهرون به لغيره، وأن ذلك لا يتفاوت عنده فقال : ﴿ **سواء منكم من أسر القول ومن جهر به** ﴾ فهو يعلم ما أسره الإنسان كعلمه بما جهر به من خير وشر ، وقوله : ﴿ **منكم** ﴾ متعلق بسواء على معنى : يستوى منكم من أسر ومن جهر أو سر من أسر وجهر من جهر ﴿ **ومن هو مستخف بالليل** ﴾ أى مستتر فى الظلمة الكائنة فى الليل متوار عن الأعين ، يقال: خفى الشيء واستخفى ، أى استتر وتوارى ﴿**وسارب بالنهار** ﴾ قال الكسائى : سَرَبَ يَسْرُبُ سُرْبًا وسُرُوبًا : إذا ذهب، ومنه قول الشاعر :

وكل أناس قاربوا قيد فحلهم ونحن خلعنا قيده فهو سارب

أى ذهب . وقال القتيبى : سارب بالنهار متصرف فى حوائجه بسرعة من قولهم : أسرب الماء . قال الأصمعى : حل سربه ، أى طريقته ، وقال الزجاج : معنى الآية : الجاهر بنطقه والمضمر فى نفسه ، والظاهر فى الطرقات والمستخفى فى الظلمات علم الله فيهم جميعًا سوى ، وهذا ألصق بمعنى الآية كما تفيده المقابلة بين المستخفى والسارب ، فالمستخفى : المستتر ، والسارب : البارز الظاهر .

﴿ **له معقبات** ﴾ الضمير فى « له » راجع إلى « من » فى قوله : ﴿ **من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف** ﴾ أى لكل من هؤلاء معقبات ، والمعقبات : المتناوبات التى يخلف كل واحد منها صاحبه ، ويكون بدلا منه وهم الحفظة من الملائكة فى قول عامة المفسرين . قال الزجاج : المعقبات ملائكة يأتى بعضهم بعقب بعض ، وإنما قال : معقبات مع كون الملائكة ذكوراً ؛ لأن الجماعة من الملائكة يقال لها : معقبة ، ثم جمع معقبة على معقبات ، ذكر معناه الفراء . وقيل: أنث لكثرة ذلك منهم نحو نسابة وعلامة. قال الجوهرى : والتعقب العود بعد البدء ، قال الله تعالى : ﴿ ولى مدبرا ولم يعقب ﴾ [النمل: ١٠] وقرئ : « معاقيب » جمع معقب ﴿**من بين يديه ومن خلفه** ﴾ أى من بين يدى من له المعقبات ، والمراد : أن الحفظة من الملائكة من جميع جوانبه . وقيل : المراد بالمعقبات : الأعمال ، ومعنى ﴿ **من بين يديه ومن خلفه** ﴾ : ما تقدم منها وما تأخر .

﴿ **يحفظونه من أمر الله** ﴾ أى من أجل أمر الله ، وقيل . يحفظونه من بأس الله إذا أذنب بالاستمهال له والاستغفار حتى يتوب . قال الفراء : فى هذا قولان : أحدهما : أنه على التقديم والتأخير. تقديره : له معقبات من أمر الله يحفظونه من بين يديه ومن خلفه ، والثانى: أن كون الحفظة يحفظونه هو مما أمر الله به . قال الزجاج : المعنى : حفظهم إياه من أمر الله أى مما أمرهم به لا أنهم يقدرون أن يدفعوا أمر الله . قال ابن الأنبارى : وفى هذا قول آخر وهو أن «من » بمعنى الباء، أى يحفظونه بأمر الله . وقيل : إن « من » بمعنى عن ، أى يحفظونه عن أمر الله ، بمعنى من عند الله ، لا من عند أنفسهم كقوله: ﴿أطعمهم من جوع ﴾ [قريش : ٤]

أى عن جوع . وقيل: يحفظونه من ملائكة العذاب . وقيل : يحفظونه من الجن . واختار ابن جرير أن المعقبات المواكب بين أيدى الأمراء على معنى أن ذلك لا يدفع عنه القضاء .

﴿ **إن الله لا يغير ما بقوم** ﴾ من النعمة والعافية ﴿ **حتى يغيروا ما بأنفسهم** ﴾ من طاعة الله، والمعنى: أنه لا يسلب قومًا نعمة أنعم بها عليهم حتى يغيروا الذى بأنفسهم من الخير والأعمال الصالحة أو يغيروا الفطرة التى فطرهم الله عليها ، قيل: وليس المراد أنه لا ينزل بأحد من عباده عقوبة حتى يتقدم له ذنب ، بل قد تنزل المصائب بذنوب الغير كما فى الحديث إنه سأل رسول الله ﷺ سائل فقال : أنهلك وفينا الصالحون ؟ قال :« نعم إذا كثر الخبث » [1] . ﴿**وإذا أراد الله بقوم سوءا** ﴾ أى هلاكًا وعذابًا ﴿ **فلا مرد له** ﴾ أى فلا رد له . وقيل : المعنى : إذا أراد الله بقوم سوءًا أعمى قلوبهم ؛ حتى يختاروا ما فيه البلاء ﴿ **وما لهم من دونه من وال** ﴾ يلى أمرهم ويلتجئون إليه، فيدفع عنهم ما ينزل بهم من اللّه سبحانه من العقاب ، أو من ناصر ينصرهم ويمنعهم من عذاب الله ، والمعنى : أنه لا راد لعذاب الله ولا ناقض لحكمه .

وقد أخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن الحسن فى قوله : ﴿ **وإن تعجب فعجب قولهم** ﴾ قال : إن تعجب يا محمد من تكذيبهم إياك فعجب قولهم . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن زيد فى الآية قال : إن تعجب يا محمد من تكذيبهم ، وهم رأوا من قدرة الله وأمره ، وما ضرب لهم من الأمثال وأراهم من حياة الموتى والأرض الميتة ﴿ **فعجب قولهم أئذا كنا ترابا أئنا لفى خلق جديد** ﴾ أو لا يرون أنه خلقهم من نطفة، فالخلق من نطفة أشد من الخلق من تراب وعظام ؟

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ **وقد خلت من قبلهم المثلات** ﴾ قال : العقوبات . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى ﴿**المثلات**﴾ قال : وقائع الله فى الأمم فيمن خلا قبلكم . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : ﴿ **المثلات**﴾ ما أصاب القرون الماضية من العذاب. وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن سعيد بن المسيب قال : لما نزلت هذه الآية ﴿ **وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم وإن ربك لشديد العقاب** ﴾ قال رسول الله ﷺ : « لولا عفو الله وتجاوزه ما هنأ لأحد العيش، ولولا وعيده وعقابه لاتكل كل أحد » .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس ﴿ **ولكل قوم هاد** ﴾ نبى يدعوهم إلى الله . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير قال : محمد المنذر ، والهادى الله ــ عز وجل . وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس نحوه . وأخرج ابن جرير عن مجاهد نحوه أيضا. وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : رسول الله ﷺ هو المنذر وهو الهادى . وأخرج ابن جرير عن عكرمة وأبى الضحى نحوه . وأخرج ابن جرير

---

(١) سبق تخريجه .

وابن مردويه ، وأبو نعيم فى المعرفة ، والديلمى وابن عساكر وابن النجار عن ابن عباس قال : لما نزلت : ﴿ **إنما أنت منذر ولكل قوم هاد** ﴾ وضع رسول الله ﷺ يده على صدره فقال: « أنا المنذر » ، وأومأ بيده إلى منكب على فقال : « أنت الهادى يا على ، بك يهتدى المهتدون من بعدى » (١) ، قال ابن كثير فى تفسيره: وهذا الحديث فيه نكارة شديدة (٢) . وأخرج ابن مردويه عن أبى برزة الأسلمى ، قال : سمعت رسول الله ﷺ فذكر نحوه . وأخرج ابن مردويه ، والضياء فى المختارة عن ابن عباس مرفوعا نحوه أيضا . وأخرج عبد الله بن أحمد فى زوائد المسند ، وابن أبى حاتم ، والطبرانى فى الأوسط ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه وابن عساكر عن على بن أبى طالب فى الآية نحوه أيضًا (٣) .

وأخرج ابن جرير عن الضحاك ﴿ **الله يعلم ما تحمل كل أنثى** ﴾ قال : كل أنثى من خلق الله. وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن سعيد بن جبير فى الآية قال : يعلم ذكرًا هو أو أنثى . ﴿ **وما تغيض الأرحام**﴾ قال: هى المرأة ترى الدم فى حملها . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله: ﴿ **وما تغيض الأرحام** ﴾ قال: خروج الدم ، ﴿ **وما تزداد** ﴾ قال : استمساكه . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس : ﴿**وما تغيض الأرحام** ﴾ قال : أن ترى الدم فى حملها ﴿ **وما تزداد** ﴾ قال : فى التسعة أشهر . وأخرج ابن أبى حاتم من طريق الضحاك عنه فى الآية قال : ما تزداد على تسعة ، وما تنقص من التسعة . وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ عنه أيضا فى الآية: ﴿ **وما تغيض الأرحام** ﴾ قال : السقط ﴿**وما تزداد** ﴾ : ما زادت فى الحمل على ما غاضت حتى ولدته تماماً ، وذلك أن من النساء من تحمل عشرة أشهر ، ومنهن من تحمل تسعة أشهر، ومنهن من تنقص ، فذلك الغيض والزيادة التى ذكر الله ، وكل ذلك بعلمه تعالى .

وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله : ﴿ **عالم الغيب والشهادة** ﴾ قال: السر والعلانية. وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ فى قوله : ﴿ **ومن هو مستخف بالليل** ﴾ قال : راكب رأسه فى المعاصى. ﴿ **وسارب بالنهار** ﴾ قال : ظاهر بالنهار بالمعاصى . وأخرج أبو عبيد وابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن ابن عباس ﴿**وسارب بالنهار**﴾ قال : الظاهر . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه فى الآية قال : هو صاحب ريبة مستخف بالليل، وإذا خرج بالنهار أرى الناس أنه برىء من الإثم .

---

(١) ابن جرير ١٣/ ٧٢ وفى سنده الحسن بن الحسين الأنصارى العرفى كان من رؤساء الشيعة. قال عنه أبو حاتم: « لم يكن بصدوق عندهم » . وقال ابن عدى : « لا يشبه حديثه حديث الثقات . . وقد رواه عن معاذ بن مسلم وهو نكرة فلعل الآفة منه » . ميزان الاعتدال ١/ ٤٨٣ ، ٤٨٤ .

(٢) ابن كثير ٤/ ٧٠ .

(٣) صححه الحاكم موقوفا ٣/ ١٣٠ ، وقال الذهبى : « بل كذب قبح الله واضعه » وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ٤٤ : « رواه عبد الله بن أحمد والطبرانى فى الصغير والأوسط ورجال المسند ثقات ، ولم يسم عليا » .

وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم ، والطبرانى فى الكبير ، وابن مردويه ، وأبو نعيم فى الدلائل من طريق عطاء بن يسار ، عن ابن عباس أن سبب نزول الآية قدوم عامر بن الطفيل وأربد ابن قيس على رسول الله ﷺ فى القصة المشهورة وأنه لما أصيب عامر بن الطفيل بالغدة نزل قوله تعالى : ﴿ **الله يعلم ما تحمل كل أنثى** ﴾ إلى قوله: ﴿ **معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله** ﴾ قال : المعقبات من أمر الله يحفظون محمدًا ﷺ ، ثم ذكر أربد بن قيس وما قتله فقال : ﴿ **هو الذى يريكم البرق** ﴾ إلى قوله : ﴿ **وهو شديد المحال** ﴾ (١) .

وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **معقبات** ﴾ الآية قال: هذه للنبى ﷺ خاصة . وأخرج ابن أبى حاتم عنه ﴿ **يحفظونه من أمر الله** ﴾ قال : ذلك الحفظ من أمر الله بأمر الله . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضًا ﴿ **من أمر الله** ﴾ قال : بإذن الله . وأخرج ابن جرير عن قتادة مثله . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى الآية قال : ولى السلطان يكون عليه الحراس يحفظونه من بين يديه ومن خلفه ، يقول : يحفظونه من أمرى ، فإنى إذا أردت بقوم سوءًا فلا مرد له . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عنه فى الآية قال : الملوك يتخذون الحرس يحفظونه من أمامه ، ومن خلفه ، وعن يمينه ، وعن شماله ، يحفظونه من القتل ، ألم تسمع أن الله يقول : ﴿ **وإذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له** ﴾ أى إذا أراد الله سوءًا لم يغن الحرس عنه شيئًا . وأخرج ابن جرير عن عكرمة فى الآية قال : هؤلاء الأمراء . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : هم الملائكة تعقب بالليل تكتب على ابن آدم . وأخرج عبد الرزاق والفريابى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه فى الآية قال : ملائكة يحفظونه من بين يديه ومن خلفه ، فإذا جاء قدر الله خلوا عنه . وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ عن على فى الآية قال : ليس من عبد إلا ومعه ملائكة يحفظونه من أن تقع عليه حائط ، أو ينزوى فى بئر ، أو يأكله سبع ، أو غرق أو حرق ، فإذا جاء القدر خلوا بينه وبين القدر . وقد ورد فى ذكر الحفظة الموكلين بالإنسان أحاديث كثيرة مذكورة فى كتب الحديث .

﴿ **هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ (١٢) وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ (١٣) لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ (١٤) وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (١٥) قُلْ مَن رَّبُّ** ﴾

(١) الطبرانى (١٠٧٦٠) وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ٤٥ : « رواه الطبرانى فى الأوسط والكبير وفى إسنادهما عبد العزيز بن عمران وهو ضعيف».

السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لا يَمْلِكُونَ لأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (١٦) أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ (١٧) لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَىٰ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لافْتَدَوْا بِهِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٨) ﴾ .

لما خوف سبحانه عباده بإنزال ما لا مرد له ، أتبعه بأمور ترجى من بعض الوجوه ، ويخاف من بعضها ، وهى البرق ، والسحاب ، والرعد ، والصاعقة ، وقد مر فى أول البقرة تفسير هذه الألفاظ وأسبابها . وقد اختلف فى وجه انتصاب ﴿**خوفا وطمعا** ﴾ فقيل : على المصدرية ، أى لتخافوا خوفًا ولتطمعوا طمعًا . وقيل : على العلة بتقدير إرادة الخوف والطمع، لئلا يختلف فاعل الفعل المعلل وفاعل المفعول له ، أو على الحالية من البرق ، أو من المخاطبين بتقدير ذوى خوف . وقيل غير ذلك مما لا حاجة إليه . قيل : والمراد بالخوف هو الحاصل من الصواعق ، وبالطمع هو الحاصل فى المطر ، وقال الزجاج : الخوف للمسافر لما يتأذى به من المطر ، والطمع للحاضر ؛ لأنه إذا رأى البرق طمع فى المطر ، الذى هو سبب الخصب ﴿**وينشئ السحاب الثقال** ﴾ التعريف للجنس ، والواحدة سحابة ، والثقال : جمع ثقيلة ، والمراد أن الله سبحانه يجعل السحاب التى ينشئها ثقالاً بما يجعله فيها من الماء .

﴿ **ويسبح الرعد بحمده** ﴾ أى يسبح الرعد نفسه بحمد الله ، أى متلبسًا بحمده ، وليس هذا بمستبعد ولا مانع من أن ينطقه الله بذلك ﴿ وإن من شىء إلا يسبح بحمده ﴾ [الإسراء : ٤٤] وأما على تفسير الرعد بملك من الملائكة فلا استبعاد فى ذلك ، ويكون ذكره على الإفراد مع ذكر الملائكة بعده لمزيد خصوصية له ، وعناية به . وقيل : المراد : ويسبح سامعو الرعد ، أى يقولون : سبحان الله والحمد لله . ﴿ **والملائكة من خيفته** ﴾ أى ويسبح الملائكة من خيفة الله سبحانه . وقيل : من خيفة الرعد ، وقد ذكر جماعة من المفسرين أن هؤلاء الملائكة هم أعوان الرعد ، وأن الله سبحانه جعل له أعوانًا ﴿ **ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء** ﴾ من خلقه فيهلكه، وسياق هذه الأمور هنا للغرض الذى سيقت له الآيات التى قبلها وهى الدلالة على كمال قدرته ﴿ **وهم يجادلون فى الله** ﴾ الضمير راجع إلى الكفار ، المخاطبين فى قوله : ﴿ **هو الذى يريكم البرق** ﴾ أى وهؤلاء الكفرة مع هذه الآيات التى أراهم الله يجادلون فى شأن الله سبحانه

فينكرون البعث تارة ، ويستعجلون العذاب أخرى ، ويكذبون الرسل ويعصون الله ، وهذه الجملة فى محل نصب على الحال ويجوز أن تكون مستأنفة .

﴿ **وهو شديد المحال** ﴾ قال ابن الأعرابى: المحال: المكر ، والمكر من الله: التدبير بالحق . وقال النحاس: المكر من الله إيصال المكروه إلى من يستحقه من حيث لا يشعر . وقال الأزهرى: المحال : القوة والشدة ، والميم أصلية وماحلت فلانا محالاً أينا أشد . وقال أبو عبيد : المحال : العقوبة والمكروه . قال الزجاج : يقال : ماحلته محالاً : إذا قاويته حتى يتبين أيكما أشد والْمَحْلُ فى اللغة : الشدة . وقال ابن قتيبة : أى شديد الكيد . وأصله من الحيلة جعل الميم كميم المكان ، وأصله من الكون ، ثم يقال : تمكنت . قال الأزهرى : غلط ابن قتيبة أن الميم فيه زائدة، بل هى أصلية ، وإذا رأيت الحرف على مثال فعال أوله ميم مكسورة فهى أصليه ، مثل مهاد وملاك ومراس وغير ذلك من الحروف . وقرأ الأعرج : « وهو شديد المحال » بفتح الميم . وقد فسرت هذه القراءة بالحول . وللصحابة والتابعين فى تفسير المحال هنا أقوال ثمانية : الأول : العداوة. الثانى: الحول. الثالث: الأخذ . الرابع : الحقد. الخامس: القوة . السادس : الغضب. السابع : الهلاك . الثامن : الحيلة .

﴿ **له دعوة الحق** ﴾ إضافة الدعوة إلى الحق للملابسة ، أى الدعوة الملابسة للحق المختصة به التى لا مدخل للباطل فيها بوجه من الوجوه ، كما يقال : كلمة الحق ، والمعنى : أنها دعوة مجابة واقعة فى موقعها ، لا كدعوة من دونه . وقيل : الحق هو الله سبحانه ، والمعنى : أن لله سبحانه دعوة المدعو الحق ، وهو الذى يسمع فيجيب . وقيل : المراد بدعوة الحق ها هنا : كلمة التوحيد والإخلاص ، والمعنى : لله من خلقه أن يوحدوه ويخلصوا له . وقيل : دعوة الحق دعاؤه سبحانه عند الخوف فإنه لا يدعى فيه سواه كما قال تعالى : ﴿ ضل من تدعون إلا إياه﴾ [الإسراء :٦٧] . وقيل : الدعوة : العبادة فإن عبادة الله هى الحق والصدق . ﴿ **والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشىء** ﴾ أى والآلهة الذين يدعونهم ـ يعنى الكفار ـ من دون الله ـ عز وجل ـ لا يستجيبون لهم بشىء مما يطلبونه منهم كائناً ما كان إلا استجابة كاستجابة الماء لمن بسط كفيه إليه من بعيد فإنه لا يجيبه ؛ لأنه جماد لا يشعر بحاجته إليه ، ولا يدرى أنه طلب منه أن يبلغ فاه ؛ ولهذا قال : ﴿ **وما هو** ﴾ أى الماء ﴿ **ببالغه** ﴾ أى ببالغ فيه . قال الزجاج : إلا كما يستجاب للذى يبسط كفيه إلى الماء يدعو الماء إلى فيه، والماء لا يستجيب . أعلم الله سبحانه أن دعاءهم الأصنام كدعاء العطشان إلى الماء يدعوه إلى بلوغ فمه، وما الماء ببالغه. وقيل: المعنى: أنه كباسط كفيه إلى الماء ليقبض عليه فلا يحصل فى كفه شىء منه . وقد ضربت العرب لمن سعى فيما لا يدركه مثلا بالقبض على الماء كما قال الشاعر [١] :

---

(١) هو الأحوص: عبد الله بن محمد بن عبد الله ، شاعر أموى، عاصر جريرًا والفرزدق، مات فى عهد يزيد ابن عبد الملك ، شاعر هجاء وغزل . الأعلام ٤/١١٦ .

فَأَصْبَحْتُ مِمَّا كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَهَا مِنَ الوُدِّ مِثْلَ القَابِضِ المَاءَ بِاليَدِ

وقال الآخر :

ومن يأمن الدنيا يكن مثل قابض على الماء خانته فروج الأصابع

وقال الفراء : إن المراد بالماء هنا ماء البئر ؛ لأنها معدن للماء ، وأنه شبهه بمن مد يده إلى البئر بغير رشاء . ضرب الله سبحانه هذا مثلا لمن يدعو غيره من الأصنام . ﴿ **وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال** ﴾ أى يضل عنهم ذلك الدعاء فلا يجدون منه شيئًا ، ولا ينفعهم بوجه من الوجوه، بل هو ضائع ذاهب .

﴿ **ولله يسجد من فى السموات والأرض طوعا وكرها** ﴾ إن كان المراد بالسجود معناه الحقيقى، وهو وضع الجبهة على الأرض للتعظيم مع الخضوع والتذلل ، فذلك ظاهر فى المؤمنين والملائكة ومسلمى الجن . وأما فى الكفار فلا يصح تأويل السجود بهذا فى حقهم فلابد أن يحمل السجود المذكور فى الآية على معنى : حق لله السجود ووجب ، حتى يناول السجود بالفعل وغيره ، أو يفسر للسجود بالانقياد ، لأن الكفار وإن لم يسجدوا لله فهم منقادون لأمره، وحكمه فيهم بالصحة والمرض والحياة والموت والفقر والغنى ، ويدل على إرادة هذا المعنى قوله: ﴿**طوعا وكرها**﴾ فإن الكفار ينقادون كرهًا كما ينقاد المؤمنون طوعًا وهما منتصبان على المصدرية، أى انقياد طوع وانقياد كره، أو على الحال ، أى طائعين وكارهين . وقال الفراء : الآية خاصة بالمؤمنين فإنهم يسجدون طوعًا، وبعض الكفار يسجدون إكراهًا وخوفًا كالمنافقين ، فالآية محمولة على هؤلاء . وقيل : الآية فى المؤمنين ، فمنهم من سجد طوعًا لا يثقل عليه السجود ، ومنهم من يثقل عليه لأن التزام التكليف مشقة ولكنهم يتحملون المشقة إيمانًا بالله وإخلاصاً له .

﴿ **وظلالهم بالغدو والآصال** ﴾ وظلالهم: جمع ظل . والمراد به : ظل الإنسان الذى يتبعه. جعل ساجداً بسجوده حيث صار لازمًا له لا ينفك عنه . قال الزجاج وابن الأنبارى : ولا يبعد أن يخلق الله للظلال أفهامًا تسجد بها لله سبحانه ، كما جعل للجبال أفهامًا حتى اشتغلت بتسبيحه ، فظل المؤمن يسجد لله طوعًا ، وظل الكافر يسجد لله كرهًا . وخص الغدو والآصال بالذكر ؛ لأنه يزداد ظهور الظلال فيهما ، وهما ظرف للسجود المقدر ، أى ويسجد ظلالهم فى هذين الوقتين ، وقد تقدم تفسير الغدو والآصال فى الأعراف . وفى معنى هذه الآية قوله سبحانه: ﴿ أو لم يروا إلى ما خلق الله من شىء يتفيأ ظلاله عن اليمين والشمائل سجدًا لله وهم داخرون ﴾ [النحل : ٤٨] وجاء بمن فى ﴿ **من فى السموات والأرض** ﴾ تغليباً للعقلاء على غيرهم ولكون سجود غيرهم تبعًا لسجودهم ، ومما يؤيد حمل السجود على الانقياد ما يفيده تقديم ﴿ **لله** ﴾ على الفعل من الاختصاص، فإن سجود الكفار لأصنامهم معلوم ، ولا ينقادون لهم كانقيادهم لله فى الأمور التى يقرون على أنفسهم بأنها من الله كالخلق والحياة والموت ، ونحو ذلك .

﴿ **قل من رب السموات والأرض** ﴾ : أمر الله سبحانه رسوله أن يسأل الكفار : من رب السموات والأرض؟ ثم لما كانوا يقرون بذلك ويعترفون به كما حكاه الله سبحانه فى قوله : ﴿ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم ﴾ [الزخرف : ٩] . وقوله ﴿ ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله﴾ [الزخرف : ٨٧] أمر رسوله ﷺ أن يجيب فقال : ﴿ **قل الله** ﴾ فكأنه حكى جوابهم وما يعتقدونه ، لأنهم ربما تلعثموا فى الجواب حذراً مما يلزمهم ، ثم أمره بأن يلزمهم الحجة ويبكتهم فقال : ﴿ **قل أفاتخذتم من دونه أولياء** ﴾ والاستفهام للإنكار ، أى إذا كان رب السموات والأرض هو الله كما تقرون بذلك وتعترفون به كما حكاه سبحانه عنكم بقوله : ﴿ قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم ﴾ [المؤمنون: ٨٦] يضرون به غيرهم أو يدفعونه عن أنفسهم فكيف ترجون منهم النفع والضر وهم لا يملكونهما لأنفسهم ، والجملة فى محل نصب على الحال ، ثم ضرب الله سبحانه لهم مثلاً ، وأمر رسوله ﷺ أن يقوله لهم. فقال : ﴿ **قل هل يستوى الأعمى والبصير** ﴾ أى هل يستوى الأعمى فى دينه وهو الكافر، والبصير فيه وهو الموحد . فإن الأول جاهل لما يجب عليه وما يلزمه ، والثانى عالم بذلك . قرأ ابن محيصن وأبو بكر والأعمش ، وحمزة والكسائى : « أم هل يستوى الظلمات والنور » بالتحتية ، وقرأ الباقون بالفوقية ، واختار القراءة الثانية أبو عبيد . والمراد بالظلمات : الكفر ، وبالنور : الإيمان ، والاستفهام للتقريع والتوبيخ ، أى كيف يكونان مستويين وبينهما من التفاوت ما بين الأعمى والبصير ، وما بين الظلمات والنور ؟ ووحد النور وجمع الظلمات ؛ لأن طريق الحق واحدة لا تختلف وطرائق الباطل كثيرة غير منحصرة [(١)] .

﴿ **أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه** ﴾ « أم » هى المنقطعة التى بمعنى بل والهمزة ، أى بل أجعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه ، والاستفهام لإنكار الوقوع . قال ابن الأنبارى : معناه : أجعلوا لله شركاء خلقوا مثل ما خلق الله فتشابه خلق الشركاء بخلق الله عندهم ، أى ليس الأمر على هذا حتى يشتبه الأمر عليهم ، بل إذا فكروا بعقولهم وجدوا الله هو المتفرد بالخلق ، وسائر الشركاء لا يخلقون شيئاً ، وجملة : ﴿ **خلقوا كخلقه** ﴾ فى محل نصب صفة لشركاء ، والمعنى : أنهم لم يجعلوا لله شركاء متصفين بأنهم خلقوا كخلقه ﴿ **فتشابه** ﴾ بهذا السبب ﴿**الخلق عليهم**﴾ حتى يستحقوا بذلك العبادة منهم بل إنما جعلوا له شركاء الأصنام ونحوها ، وهى بمعزل عن أن تكون كذلك . ثم أمره الله سبحانه بأن يوضح لهم الحق ويرشدهم إلى الصواب فقال : ﴿ **قل الله خالق كل شىء** ﴾ كائنا ما كان ليس لغيره فى ذلك مشاركة بوجه من الوجوه . قال الزجاج : والمعنى : أنه خالق كل شىء مما يصح أن يكون مخلوقاً ترى أنه تعالى خالق كل شىء وهو غير مخلوق ﴿ **وهو الواحد** ﴾ أى المتفرد بالربوبية ﴿ **القهار** ﴾ لما عداه فكل ما عداه مربوب مقهور مغلوب .

---

(١) فى المطبوعة : « محصرة » ، والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .

ثم ضرب سبحانه مثلاً آخر للحق وذويه، وللباطل ومنتحليه فقال: ﴿ **أنزل من السماء ماء**﴾ أى من جهتها ، والتنكير للتكثير أو للنوعية ﴿ **فسالت أودية**﴾ جمع واد وهو كل منفرج بين جبلين أو نحوهما . قال أبو على الفارسى : لا نعلم فاعلاً جمع على أفعلة إلا هذا ، وكأنه حمل على فعيل فجمع على أفعلة مثل جريب وأجربة ، كما أن فعيلاً حمل على فاعل ، فجمع على أفعال مثل يتيم وأيتام ، وشريف وأشراف كأصحاب وأنصار فى صاحب وناصر . قال : وفى قوله : ﴿ **فسالت أودية** ﴾ توسع ، أى سال ماؤها ، قال : ومعنى ﴿**بقدرها** ﴾ : بقدر مائها ؛ لأن الأودية ما سالت بقدر أنفسها. قال الواحدى :والقدر مبلغ الشىء ، والمعنى : بقدرها من الماء فإن صغر الوادى قل الماء، وإن اتسع كثر ، وقال فى الكشاف : ﴿ **بقدرها** ﴾ : بمقدارها الذى يعرف الله أنه نافع للممطور عليهم غير ضار. قال ابن الأنبارى : شبه نزول القرآن الجامع للهدى والبيان بنزول المطر، إذ نفع نزول القرآن يعم كعموم نفع نزول المطر وشبه الأودية بالقلوب ، إذ الأودية يستكن فيها الماء كما يستكن القرآن والإيمان فى قلوب المؤمنين .

﴿ **فاحتمل السيل زبدا رابيا** ﴾ الزبد : هو الأبيض المرتفع المنتفخ على وجه السيل ويقال له: الغثاء والرغوة، والرابى: العالى المرتفع فوق الماء . قال الزجاج : هو الطافى فوق الماء ، وقال غيره : هو الزائد بسبب انتفاخه ، من ربا يربو : إذا زاد ، والمراد من هذا : تشبيه الكفر بالزبد الذى يعلو الماء ، فإنه يضمحل ويعلق بجنبات الوادى وتدفعه الرياح، فكذلك يذهب الكفر ويضمحل ، وقد تم المثل الأول ، ثم شرع سبحانه فى ذكر المثل الثانى فقال : ﴿ **ومما يوقدون عليه فى النار** ﴾ « من » لابتداء الغاية ، أى ومنه ينشأ زبد مثل زبد الماء ، أوللتبعيض، بمعنى : وبعضه زبد مثله. والضمير للناس ، أضمر مع عدم سبق الذكر لظهوره ، هذا على قراءة ﴿**يوقدون** ﴾ بالتحتية ، وبها قرأ حميد وابن محيصن والأعمش وحمزة والكسائى وحفص ، وقرأ الباقون بالفوقية على الخطاب واختار القراءة الأولى أبو عبيد ، والمعنى : ومما توقدون عليه فى النار فيذوب من الأجسام المنطرقة الذائبة .

﴿ **ابتغاء حلية** ﴾ أى لطلب اتخاذ حلية تتزينون بها وتتجملون كالذهب والفضة ﴿ **أو متاع**﴾ أى وطلب متاع تتمتعون به من الأوانى والآلات المتخذة من الحديد والصفر والنحاس والرصاص ﴿ **زبد مثله** ﴾ المراد بالزبد هنا الخبث، فإنه يعلو فوق ما أذيب من تلك الأجسام كما يعلو الزبد على الماء فالضمير فى﴿ **مثله** ﴾ يعود إلى ﴿ **زبدا رابيا** ﴾ وارتفاع ﴿ **زبد** ﴾على الابتداء وخبره ﴿**مما يوقدون** ﴾ ، ﴿ **كذلك يضرب الله الحق والباطل**﴾ أى مثل ذلك الضرب البديع يضرب الله مثل الحق ومثل الباطل ثم شرع فى تقسيم المثل فقال :﴿ **فأما الزبد فيذهب جفاء** ﴾ يقال : جفأ الوادى بالهمز جفاء: إذا رمى بالقذر والزبد. قال الفراء : الجفاء : الرمى، يقال : جفأ الوادى غثاء جفاء : إذا رمى به ، والجفاء بمنزلة الغثاء ، وكذا قال أبو عمرو بن العلاء وحكى أبو عبيدة أنه سمع رؤبة يقرأ :« جفالاً » . قال أبو عبيدة: يقال: أجفلت القدر: إذا قذفت بزبدها ، وأجفلت الريح السحاب : إذا قطعته ، قال أبو حاتم : لا يقرأ بقراءة رؤبة لأنه كان يأكل الفأر.

واعلم أن وجه المماثلة بين الزبدين فى الزبد الذى يحمله السيل ، والزبد الذى يعلو الأجسام المنطرقة ، أن تراب الأرض لما خالط الماء وحمله معه صار زبدًا رابياً فوقه ، وكذلك ما يوقد عليه فى النار حتى يذوب من الأجسام المنطرقة، فإن أصله من المعادن التى تنبت فى الأرض فيخالطها التراب ، فإذا أذيبت صار ذلك التراب الذى خالطها خبثًا مرتفعًا فوقها .

﴿ **وأما ما ينفع الناس** ﴾ منهما وهو الماء الصافى ، والذائب الخالص من الخبث ﴿ **فيمكث فى الأرض** ﴾ أى يثبت فيها ، أما الماء فإنه يسلك فى عروق الأرض فتنتفع الناس به ، وأما ما أذيب من تلك الأجسام فإنه يصاغ حلية وأمتعة . وهذان مثلان ضربهما الله سبحانه للحق والباطل ، يقول : إن الباطل وإن ظهر على الحق فى بعض الأحوال وعلاه فإن الله سبحانه سيمحقه ويبطله ، ويجعل العاقبة للحق وأهله كالزبد الذى يعلو الماء فيلقيه الماء ويضمحل ، وكخبث هذه الأجسام فإنه وإن علا عليها فإن الكير يقذفه ويدفعه ، فهذا مثل الباطل ، وأما الماء الذى ينفع الناس وينبت المراعى فيمكث فى الأرض، وكذلك الصفو من هذه الأجسام فإنه يبقى خالصًا لا شوب فيه وهو مثل الحق . قال الزجاج : فمثل المؤمن واعتقاده، ونفع الإيمان كمثل هذا الماء المنتفع به فى نبات الأرض وحياة كل شىء ، وكمثل نفع الفضة والذهب ، وسائر الجواهر ، لأنها كلها تبقى منتفعًا بها ، ومثل الكافر وكفره كمثل الزبد الذى يذهب جفاء، وكمثل خبث الحديد وما تخرجه النار من وسخ الفضة والذهب الذى لا ينتفع به ، وقد حكينا عن ابن الأنبارى فيما تقدم أنه شبه نزول القرآن إلى آخر ما ذكرناه فجعل ذلك مثلاً ضربه الله للقرآن . ﴿ **كذلك يضرب الله الأمثال** ﴾ أى مثل ذلك الضرب العجيب يضرب الله الأمثال فى كل باب لكمال العناية بعباده واللطف بهم ، وهذا تأكيد لقوله : ﴿ **كذلك يضرب الله الحق والباطل** ﴾ .

ثم بين سبحانه من ضرب له مثل الحق ومثل الباطل من عباده فقال فيمن ضرب له مثل الحق: ﴿ **للذين استجابوا لربهم** ﴾ أى أجابوا دعوته إذ دعاهم إلى توحيده وتصديق أنبيائه والعمل بشرائعه ، و ﴿ **الحسنى** ﴾ صفة موصوف محذوف ، أى المثوبة الحسنى وهى الجنة ، وقال سبحانه فيمن ضرب له مثل الباطل : ﴿ **والذين لم يستجيبوا** ﴾ لدعوته إلى ما دعاهم إليه، والموصول مبتدأ وخبره الجملة الشرطية وهى : ﴿ **لو أن لهم ما فى الأرض جميعا** ﴾ من أصناف الأموال التى يتملكها العباد ويجمعونها بحيث لا يخرج عن ملكهم منها شىء ﴿**ومثله معه** ﴾ أى مثل ما فى الأرض جميعا كائناً معه ومنضما إليه ﴿ **لافتدوا به** ﴾ أى بمجموع ما ذكر وهو ما فى الأرض ومثله ، والمعنى : ليخلصوا به مما هم فيه من العذاب الكبير والهول العظيم، ثم بين الله سبحانه ما أعده لهم فقال : ﴿ **أولئك** ﴾ يعنى : الذين لم يستجيبوا ﴿ **لهم سوء الحساب** ﴾ قال الزجاج : لأن كفرهم أحبط أعمالهم . وقال غيره : سوء الحساب المناقشة فيه . وقيل : هو أن يحاسب الرجل بذنبه كله لا يغفر منه شىء ﴿ **ومأواهم جهنم** ﴾ أى مرجعهم إليها ﴿ **وبئس المهاد**﴾ أى المستقر الذى يستقرون فيه، والمخصوص بالذم محذوف .

وقد أخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله: ﴿ **هو الذى يريكم البرق خوفا وطمعا** ﴾ قال : خوفًا للمسافر يخاف أذاه ومشقته وطمعًا للمقيم يطمع فى رزق الله ويرجو بركة المطر ومنفعته. وأخرج أبو الشيخ عن الحسن قال : خوفًا لأهل البحر، وطمعًا لأهل البر. وأخرج أبو الشيخ عن الضحاك قال : الخوف ما يخاف من الصواعق، والطمع : الغيث . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ، والخرائطى فى مكارم الأخلاق، والبيهقى فى سننه من طرق عن على بن أبى طالب قال : البرق: مخاريق من نار بأيدى ملائكة السحاب يزجرون به السحاب . وروى عن جماعة من السلف ما يوافق هذا ويخالفه. ولعلنا قد قدمنا فى سورة البقرة شيئًا من ذلك .

وأخرج أحمد عن شيخ من بنى غفار قد صحب رسول الله ﷺ قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الله ينشئ السحاب فتنطق أحسن النطق وتضحك أحسن الضحك » (١). قيل: والمراد بنطقها الرعد وبضحكها البرق ، وقد ثبت عند أحمد والترمذى ، والنسائى فى اليوم والليلة ، والحاكم فى مستدركه من حديث ابن عمر قال : كان رسول الله ﷺ إذا سمع الرعد والصواعق قال : « اللهم لاتقتلنا بغضبك ، ولا تهلكنا بعذابك، وعافنا قبل ذلك » (٢). وأخرج العقيلى وضعفه ، وابن مردويه عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ :« ينشئ الله السحاب ثم ينزل فيه الماء فلا شىء أحسن من ضحكه ، ولا شىء أحسن من نطقه ، ومنطقه الرعد وضحكه البرق » . وأخرج ابن مردويه عن جابر بن عبد الله ؛ أن خزيمة بن ثابت، وليس بالأنصارى ، سأل رسول الله ﷺ عن منشأ السحاب فقال : « إن ملكًا موكلا يلم القاصية ويلحم الدانية ، فى يده مخراق ، فإذا رفع برقت وإذا زجر رعدت ، وإذا ضرب ضعقت » .

وأخرج أحمد ، والترمذى وصححه ، والنسائى وابن المنذر وابن أبى حاتم ، وأبو الشيخ فى العظمة ، وابن مردويه، وأبو نعيم فى الدلائل ، والضياء فى المختارة عن ابن عباس قال : أقبلت يهود إلى رسول الله ﷺ فقالوا : يا أبا القاسم ، إنا نسألك عن خمسة أشياء ، فإن أنبأتنا بهن عرفنا أنك نبى واتبعناك ، فأخذ عليهم ما أخذ إسرائيل على بنيه إذ قال : ﴿ الله على ما نقول وكيل ﴾ [يوسف : ٦٦] قال : « هاتوا » ، قالوا : أخبرنا عن علامة النبى ؟ قال : « تنام عيناه ولا ينام قلبه» ، قالوا : أخبرنا كيف تؤنث المرأة وكيف تذكر ؟ قال : «يلتقى الماءان فإذا علا ماء الرجل ماء المرأة أذكرت ، وإذا علا ماء المرأة ماء الرجل أنثت » . قالوا : أخبرنا عما حرم إسرائيل على نفسه ؟ قال : « كان يشتكى عرق النساء ، فلم يجد شيئا يلائمه إلا ألبان

---

(١) أحمد ٥/ ٤٣٥ وقال الهيثمى فى المجمع ٢/ ٢١٦ : « ورجال أحمد رجال الصحيح » .

(٢) أحمد ٢/ ١٠٠ والترمذى فى الدعوات (٣٤٥٠) وقال: « هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه». وصححه الحاكم ٤/ ٢٨٦ ووافقه الذهبى .

كذا وكذا ـ يعنى الإبل ـ فحرم لحومها ». قالوا : صدقت ، قالوا : أخبرنا ما هذا الرعد ؟ قال: « ملك من ملائكة الله موكل بالسحاب بيده مخراق من النار يزجر به السحاب يسوقه حيث أمره الله » . قالوا : فما هذا الصوت الذى نسمع ؟ قال : « صوته » . قالوا : صدقت إنما بقيت واحدة وهى التى نتابعك إن أخبرتنا ، إنه ليس من نبى إلا له ملك يأتيه بالخبر ، فأخبرنا من صاحبك ؟ قال : « جبريل » .قالوا: جبريل ذاك ينزل بالخراب والقتال والعذاب ، عدونا ، لو قلت : ميكائيل الذى ينزل بالرحمة والنبات والقطر ، لكان . فأنزل الله : ﴿ قل من كان عدوا لجبريل ﴾[١] إلى آخر الآية [البقرة: ٩٧] .

وأخرج البخارى فى الأدب المفرد ، وابن أبى الدنيا فى المطر ، وابن جرير عن ابن عباس؛ أنه كان إذا سمع صوت الرعد قال : سبحان الذى سبَّحت له [٢] . وقال : إن الرعد ملك ينعق بالغيث كما ينعق الراعى بغنمه ، وقد روى مثل هذا عنه من طرق . وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى هريرة : إن الرعد صوت الملك. وكذا أخرج نحوه أبو الشيخ عن ابن عمر . وأخرج ابن المنذر وابن مردويه عن ابن عباس قال : الرعد ملك اسمه الرعد ، وصوته هذا تسبيحه ، فإذا اشتد زجره احتك السحاب واضطرم من خوفه ، فتخرج الصواعق من بينه. وأخرج ابن أبى حاتم والخرائطى ، وأبو الشيخ فى العظمة عن أبى عمران الجونى قال : إن بحورا من نار دون العرش يكون منها الصواعق . وأخرج أبو الشيخ عن السدى قال : الصواعق نار. وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس ﴿ **وهو شديد المحال** ﴾ قال : شديد القوة. وأخرج ابن جرير عن على قال: شديد الأخذ .

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عنه فى قوله: ﴿ **له دعوة الحق**﴾ قال : التوحيد : لا إله إلا الله . وأخرج عبد الرزاق والفريابى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ ، والبيهقى فى الأسماء والصفات من طرق عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **دعوة الحق** ﴾ قال : شهادة أن لا إله إلا الله . وأخرج ابن جرير عن على فى قوله : ﴿ **إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه** ﴾ قال : كان الرجل العطشان يمد يده إلى البئر ليرتفع الماء إليه وما هو ببالغه. وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى الآية قال : هذا مثل المشرك الذى عبد مع الله غيره ، فمثله كمثل الرجل العطشان الذى ينظر إلى خياله فى الماء من بعيد وهو يريد أن يتناوله ولا يقدر عليه .

وأخرج أبو الشيخ عنه فى قوله : ﴿ **هل يستوى الأعمى والبصير** ﴾ قال : المؤمن والكافر. وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عنه أيضا فى قوله : ﴿ **أنزل**

(١) أحمد ١/ ٢٧٤ والترمذى فى التفسير (٣١١٧) وقال : « هذا حديث حسن غريب » . والنسائى فى الكبرى فى عشرة النساء (٩٠٧٢) .

(٢) البخارى فى الأدب المفرد (٧٢٢) وابن جرير ١٣/ ٨٣ .

من السماء ماء ﴾ الآية ، قال : هذا مثل ضربه الله احتملت منه القلوب على قدر يقينها وشكها، فأما الشك فلا ينفع معه العمل وأما اليقين فينفع الله به أهله . وهو قوله : ﴿ **فأما الزبد فيذهب جفاء** ﴾ وهو الشك ﴿ **وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض** ﴾ وهو اليقين ، وكما يجعل الحلى فى النار فيؤخذ خالصه ويترك خبثه ، فكذلك يقبل الله اليقين ويترك الشك . وأخرج هؤلاء عنه أيضا ﴿ **فسالت أودية بقدرها** ﴾ قال : الصغير قدر صغره ، والكبير قدر كبره .

﴿ **أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ (١٩) الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ (٢٠) وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ (٢١) وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ (٢٢) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ (٢٤) وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (٢٥)** ﴾

الهمزة فى قوله : ﴿ **أفمن يعلم** ﴾ للإنكار على من يتوهم المماثلة بين من يعلم أنما أنزل الله سبحانه إلى رسوله ﷺ من الحق الذى لا شك فيه ولا شبهة وهو القرآن ، وبين من هو أعمى لا يعلم ذلك ، فإن الحال بينهما متباعد جدًا كالتباعد الذى بين الماء والزبد ، وبين الخبث والخالص من تلك الأجسام ، ثم بين سبحانه أنه إنما يقف على تفاوت المنزلتين وتباين الرتبتين أهل العقول الصحيحة فقال : ﴿ **إنما يتذكر أولو الألباب** ﴾ .

ثم وصفهم بهذه الأوصاف المادحة فقال : ﴿ **الذين يوفون بعهد الله** ﴾ أى بما عقدوه من العهود فيما بينهم وبين ربهم ، أو فيما بينهم وبين العباد ﴿ **ولا ينقضون الميثاق** ﴾ الذى وثقوه على أنفسهم وأكدوه بالأيمان ونحوها ، وهذا تعميم بعد التخصيص لأنه يدخل تحت الميثاق كل ما أوجبه العبد على نفسه كالنذور ونحوها ، ويحتمل أن يكون الأمر بالعكس فيكون من التخصيص بعد التعميم على أن يراد بالعهد جميع عهود الله ، وهى أوامره ونواهيه ، التى وصى بها عبيده، ويدخل فى ذلك الالتزامات التى يلزم بها العبد نفسه ، ويراد بالميثاق : ما أخذه الله على عباده حين أخرجهم من صلب آدم فى عالم الذر المذكور فى قوله سبحانه : ﴿وإذ أخذ ربك من بنى آدم ﴾ الآية [الأعراف : ١٧١]

﴿ **والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل** ﴾ ظاهره شمول كل ما أمر الله بصلته ، ونهى عن قطعه من حقوق الله وحقوق عباده ، ويدخل تحت ذلك صلة الأرحام دخولاً أوليا ، وقد قصره

كثير من المفسرين على صلة الرحم ، واللفظ أوسع من ذلك [١] . ﴿ **ويخشون ربهم** ﴾ خشية تحملهم على فعل ما وجب واجتناب ما لا يحل ﴿ **ويخافون سوء الحساب** ﴾ وهو الاستقصاء فيه والمناقشة للعبد ، فمن نوقش الحساب عذب [٢] ، ومن حق هذه الخيفة أن يحاسبوا أنفسهم قبل أن يحاسبوا .

﴿ **والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم** ﴾ قيل : هو كلام مستأنف . وقيل : معطوف على ما قبله ، والتعبير عنه بلفظ المضىّ للتنبيه على أنه ينبغى تحققه ، والمراد بالصبر : الصبر على الإتيان بما أمر الله به ، واجتناب ما نهى عنه . وقيل : على الرزايا والمصائب ، ومعنى كون ذلك الصبر لابتغاء وجه الله أن يكون خالصاً له ، لا شائبة فيه لغيره . ﴿ **وأقاموا الصلاة** ﴾ أى فعلوها فى أوقاتها على ما شرعه الله سبحانه فى أذكارها وأركانها مع الخشوع والإخلاص ، والمراد بها : الصلوات المفروضة . وقيل : أعم من ذلك . ﴿ **وأنفقوا مما رزقناهم** ﴾ أى أنفقوا بعض ما رزقناهم ، والمراد بالسر: صدقة النفل ، والعلانية :صدقة الفرض . وقيل : السر لمن لم يعرف بالمال ، أو لا يتهم بترك الزكاة ، والعلانية لمن كان يعرف بالمال أو يتهم بترك الزكاة . ﴿**ويدرؤون بالحسنة السيئة** ﴾ أى يدفعون سيئة من أساء إليهم بالإحسان إليه كما فى قوله تعالى : ﴿ ادفع بالتى هى أحسن ﴾ [فصلت : ٣٤] أو يدفعون بالعمل الصالح العمل السيئ ، أو يدفعون الشر بالخير أو المنكر بالمعروف، أو الظلم بالعفو ، أو الذنب بالتوبة، ولا مانع من حمل الآية على جميع هذه الأمور . والإشارة بقوله :﴿ **أولئك** ﴾ إلى الموصوفين بالصفات المتقدمة ﴿ **لهم عقبى الدار** ﴾ العقبى مصدر كالعاقبة . والمراد بالدار : الدنيا ، وعقباها: الجنة . وقيل : المراد بالدار : الدار الآخرة ، وعقباها : الجنة للمطيعين ، والنار للعصاة .

﴿ **جنات عدن يدخلونها** ﴾ بدل من عقبى الدار ، أى لهم جنات عدن ، ويجوز أن يكون مبتدأ وخبره يدخلونها، والعدن أصله الإقامة، ثم صار علمًا لجنة من الجنان . قال القشيرى : وجنات عدن وسط الجنة وقصبتها وسقفها عرش الرحمن ، ولكن فى صحيح البخارى وغيره : «إذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة وفوقه عرش الرحمن ، ومنه تفجر أنهار الجنة » [٣] .

﴿ **ومن صلح من آبائهم** ﴾ يشمل الآباء والأمهات ﴿ **وأزواجهم وذرياتهم** ﴾ معطوف على الضمير فى يدخلون وجاز ذلك للفصل بين المعطوف والمعطوف عليه ، أى ويدخلها أزواجهم

---

(١) عند ابن جرير ١٣/٩٤ : « والذين يصلون الأرحام » . وعند القرطبى ٥/٣٥٣٩ : « ظاهر فى صلة الأرحام وهو قول قتادة وأكثر المفسرين ، وهو مع ذلك يتناول جميع الطاعات » . وعند ابن كثير ٤/٨٥ : «من صلة الأرحام والإحسان إليهم وإلى الفقراء والمحاويج وبذل المعروف » .

(٢) روى البخارى فى الرقاق (٦٥٣٦) عن عائشة عن النبى ﷺ قال : « من نوقش الحساب عذب » .

(٣) أحمد ١/٣٣٩ والبخارى فى التوحيد (٧٤٢٣) والجهاد (٢٧٩٠) والترمذى فى صفة الجنة (٢٥٣٠) .

وذرياتهم ، وذكر الصلاح دليل على أنه لا يدخل الجنة إلا من كان كذلك من قرابات أولئك، ولا ينفع مجرد كونه من الآباء أو الأزواج ، أو الذرية بدون صلاح ﴿**والملائكة يدخلون عليهم من كل باب** ﴾ أى من جميع أبواب المنازل التى يسكنونها ، أو المراد: من كل باب من أبواب التحف والهدايا من الله سبحانه . ﴿ **سلام عليكم** ﴾ أى قائلين : سلام عليكم ، أى سلمتم من الآفات ، أو دامت لكم السلامة ﴿ **بما صبرتم** ﴾ أى بسبب صبركم ، وهو متعلق بالسلام ، أى إنما حصلت لكم هذه السلامة بواسطة صبركم ، أو متعلق بعليكم أو بمحذوف ، أى هذه الكرامة بسبب صبركم ، أو بدل ما احتملتم من مشاق الصبر ﴿ **فنعم عقبى الدار** ﴾ جاء سبحانه بهذه الجملة المتضمنة لمدح ما أعطاهم من عقبى الدار المتقدم ذكرها للترغيب والتشويق .

ثم أتبع أحوال السعداء بأحوال الأشقياء فقال : ﴿ **والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل** ﴾ وقد مر تفسير عدم النقض وعدم القطع فعرف منها تفسير النقض والقطع ، ولم يتعرض لنفى الخشية والخوف عنهم وما بعدهما من الأوصاف المتقدمة لدخولها فى النقض والقطع ﴿ **ويفسدون فى الأرض** ﴾ بالكفر وارتكاب المعاصى والإضرار بالأنفس والأموال ﴿ **أولئك** ﴾ الموصوفون بهذه الصفات الذميمة ﴿ **لهم** ﴾ بسبب ذلك ﴿**اللعنة**﴾ أى الطرد والإبعاد من رحمة الله سبحانه ﴿ **ولهم سوء الدار** ﴾ أى سوء عاقبة دار الدنيا وهى النار أو عذاب النار .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله تعالى : ﴿ **أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق**﴾ قال : هؤلاء قوم انتفعوا بما سمعوا من كتاب الله وعقلوه ووعوه ﴿**كمن هو أعمى** ﴾ قال : عن الحق فلا يبصره ولا يعقله . ﴿ **إنما يتذكر أولو الألباب** ﴾ فبين من هم ؟ فقال : ﴿ **الذين يوفون بعهد الله** ﴾ . وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير : ﴿ **أولو الألباب** ﴾ قال : من كان له لب ، أى عقل . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة : أن الله ذكر الوفاء بالعهد والميثاق فى بضع وعشرين آية من القرآن .

وأخرج الخطيب وابن عساكر عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « إن البر والصلة ليخففان سوء الحساب يوم القيامة » ، ثم تلا رسول الله ﷺ : ﴿**والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب** ﴾ . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن سعيد بن جبير فى قوله : ﴿ **والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل**﴾ يعنى : من إيمان بالنبيين وبالكتب كلها ﴿ **ويخشون ربهم** ﴾ يعنى يخافون من قطيعة ما أمر الله به أن يوصل ﴿**ويخافون سوء الحساب**﴾ يعنى : شدة الحساب ، وقد ورد فى صلة الرحم وتحريم قطعها أحاديث كثيرة [1] . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن الضحاك

---

(١) من ذلك ما رواه البخارى فى الأدب (٥٩٨٨) عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : « إن الرحم شجنة من الرحمن ، فقال الله : من وصلك وصلته ، ومن قطعك قطعته » .

﴿ويدرؤون بالحسنة السيئة﴾ قال : يدفعون بالحسنة السيئة .

وأخرج عبد الرزاق والفريابى وابن أبى شيبة وهناد وعبد بن حميد وابن المنذر وأبو الشيخ عن ابن مسعود فى قوله : ﴿ جنات عدن ﴾ قال : بطنان الجنة ، يعنى : وسطها . وأخرج عبد ابن حميد عن الحسن أن عمر قال لكعب : ما عدن ؟ قال: هو قصر فى الجنة ، لا يدخله إلا نبى أو صديق أو شهيد أو حكم عدل . وأخرج ابن مردويه عن على قال : قال رسول الله ﷺ : « جنة عدن قضيب غرسه الله بيده ثم قال له : كن فكان » . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد: ﴿ ومن صلح من آبائهم ﴾ قال : من آمن فى الدنيا . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن أبى عمران الجونى فى قوله: ﴿ سلام عليكم بما صبرتم ﴾ قال : على دينكم ﴿ فنعم عقبى الدار ﴾ قال : نعم ما أعقبكم الله من الدنيا فى الجنة .

وأخرج أحمد والبزار وابن جرير وابن أبى حاتم وابن حبان وأبو الشيخ وابن مردويه ، والحاكم وصححه ، وأبو نعيم فى الحلية ، والبيهقى فى شعب الإيمان عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ : « أول من يدخل الجنة من خلق الله فقراء المهاجرين الذين تسد بهم الثغور ، وتتقى بهم المكاره ، ويموت أحدهم وحاجته فى صدره ، لا يستطيع لها قضاء . فيقول الله لمن يشاء من ملائكته : ائتوهم فحيوهم ، فتقول الملائكة : ربنا نحن سكان سمائك وخيرتك من خلقك ، أفتأمرنا أن نأتى هؤلاء فنسلم عليهم ؟ قال الله : إن هؤلاء عبادى كانوا يعبدوننى ولا يشركون بى شيئا ، وتسد بهم الثغور ، وتتقى بهم المكاره ، ويموت أحدهم وحاجته فى صدره لا يستطيع لها قضاء ، فتأتيهم الملائكة عند ذلك فيدخلون عليهم من كل باب ﴿ سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار ﴾ »[1] . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن أبى أمامة : إن المؤمن ليكون متكئًا على أريكة إذا دخل الجنة وعنده سماطان من خدم ، وعند طرف السماطين بابٌ مبوَّب فيقبل الملك فيستأذن ، فيقول أقاصى الخدم للذى يليه : ملك يستأذن، ويقول الذى يليه: ملك يستأذن حتى يبلغ المؤمن ، فيقول : ائذنوا له ، فيقول أقربهم إلى المؤمن : ائذنوا له، ويقول الذى يليه للذى يليه : ائذنوا له حتى يبلغ أقصاهم الذى عند الباب ، فيفتح له فيدخل ويسلم عليه ، ثم ينصرف . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس : ﴿ولهم سوء الدار﴾ قال : سوء العاقبة .

﴿ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ (٢٦) وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي

(١) أحمد ٢/١٦٨ وابن حبان (٧٣٧٨) وصححه الحاكم ٢/٧١ ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الشعب (١٠٣٨٠) ط : دار الكتب العلمية ، وفى المطبوعة : « ابن عمر» والصحيح : « ابن عمرو » كما فى مراجع التخريج .

إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ (٢٧) الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (٢٨) الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ (٢٩) كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ لِّتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لا إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ (٣٠) ﴾ .

لما ذكر الله سبحانه عاقبة المشركين بقوله : ﴿ **ولهم سوء الدار** ﴾ كان لقائل أن يقول : قد نرى كثيراً منهم قد وفر الله له الرزق وبسط له فيه ، فأجاب عن ذلك بقوله : ﴿ **الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر** ﴾ فقد يبسط الرزق لمن كان كافراً ، ويقتره على من كان مؤمناً ابتلاء وامتحانًا ، ولا يدل البسط على الكرامة ، ولا القبض على الإهانة . ومعنى يقدر: يضيق ومنه: ﴿ ومن قدر عليه رزقه ﴾ [الطلاق :٧] أي ضيق . وقيل : معنى يقدر : يعطى بقدر الكفاية، ومعنى الآية : أنه الفاعل لذلك وحده القادر عليه دون غيره ، ﴿ **وفرحوا بالحياة الدنيا** ﴾ أى مشركو مكة فرحوا بالدنيا وجهلوا ما عند الله، قيل : وفى هذه الآية تقديم وتأخير ، والتقدير: الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون فى الأرض وفرحوا بالحياة الدنيا ، فيكون ﴿**وفرحوا** ﴾ معطوفًا على يفسدون .﴿ **وما الحياة الدنيا فى الآخرة إلا متاع** ﴾ أى ما هى إلا شىء يستمتع به . وقيل : المتاع واحد الأمتعة كالقصعة والسكرجة [(١)] ونحوهما. وقيل : المعنى: شىء قليل ذاهب من متع النهار إذا ارتفع فلابد له من زوال . وقيل: زاد كزاد الراكب يتزود به منها إلى الآخرة .

﴿ **ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه** ﴾ أى يقول أولئك المشركون من أهل مكة: هلا أنزل على محمد آية من ربه ؟ وقد تقدم تفسير هذا قريباً ، وتكرر فى مواضع ﴿ **قل إن الله يضل من يشاء** ﴾ أمره الله سبحانه أن يجيب عليهم بهذا وهو أن الضلال بمشيئة الله تعالى ، من شاء أن يضله ضل كما ضل هؤلاء القائلون : ﴿ **لولا أنزل عليه آية من ربه**﴾. ﴿**ويهدى إليه من أناب** ﴾ أى ويهدى إلى الحق،أو إلى الإسلام ،أو إلى جنابه ـ عز وجل ـ ﴿**من أناب** ﴾ أى من رجع إلى الله بالتوبة ، والإقلاع عما كان عليه ، وأصل الإنابة : الدخول فى نوبة الخير ، كذا قال النيسابورى : ومحل ﴿ **الذين آمنوا** ﴾ النصب على البدلية من قوله : ﴿ **من أناب** ﴾ أى أنهم هم الذين هداهم الله وأنابوا إليه [(٢)] ، ويجوز أن يكون :﴿ **الذين آمنوا**﴾ خبر مبتدأ محذوف ، أى هم الذين آمنوا أو منصوبًا على المدح ﴿ **وتطمئن قلوبهم بذكر الله** ﴾ أى تسكن وتستأنس بذكر الله سبحانه بألسنتهم كتلاوة القرآن ، والتسبيح ، والتحميد ، والتكبير ، والتوحيد ، أو

---

(١) السُكرجة ـ بضم السين والكاف والراء مع التشديد ـ : إناء صغير يؤكل فيه الشىء القليل ، وهى فارسية . لسان العرب ٤/ ٣٧٦ .

(٢) الإنابة : الرجوع إلى الله بالتوبة . لسان العرب ١/ ٧٧٥ .

بسماع ذلك من غيرهم ، وقد سمى سبحانه القرآن ذكرًا قال : ﴿ وهذا ذكر مبارك أنزلناه ﴾ [الأنبياء : ٥٠] ، وقال : ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر﴾ [الحجر : ٩] قال الزجاج: أى إذا ذكر الله وحده آمنوا به غير شاكين بخلاف من وصف بقوله: ﴿ وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة ﴾ [الزمر: ٤٥] تطمئن قلوبهم بتوحيد الله. وقيل: المراد بالذكر هنا: الطاعة. وقيل : بوعد الله. وقيل : بالحلف بالله ، فإذا حلف خصمه بالله سكن قلبه . وقيل : بذكر رحمته . وقيل : بذكر دلائله الدالة على توحيده ﴿ **ألا بذكر الله** ﴾ وحده دون غيره ﴿**تطمئن القلوب** ﴾ والنظر فى مخلوقات الله سبحانه وبدائع صنعه ، وإن كان يفيد طمأنينة فى الجملة ، لكن ليست كهذه الطمأنينة ، وكذلك النظر فى المعجزات من الأمور التى لا يطيقها البشر ، فليس إفادتها للطمأنينة كإفادة ذكر الله ؛ فهذا وجه ما يفيده هذا التركيب من القصر .

﴿ **الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب** ﴾ الموصول مبتدأ خبره الجملة الدعائية ، وهى طوبى لهم على التأويل المشهور ، ويجوز أن يكون الموصول بدلاً من القلوب على حذف مضاف ، أى قلوب الذين آمنوا . قال أبو عبيدة والزجاج وأهل اللغة : طوبى فُعْلَى من الطيب . قال ابن الأنبارى : وتأويلها : الحال المستطابة . وقيل : طوبى شجرة فى الجنة . وقيل : هى الجنة . وقيل : هى البستان بلغة الهند . وقيل : معنى ﴿ **طوبى لهم**﴾: حسنى لهم . وقيل: خير لهم . وقيل : كرامة لهم . وقيل: غبطة لهم . قال النحاس : وهذه الأقوال متقاربة ، والأصل : طيبى ، فصارت الياء واواً لسكونها وضم ما قبلها ، واللام فى لهم للبيان ، مثل : سقياً لك ورعيًا لك . وقرئ :﴿ **حسن مآب** ﴾ بالنصب والرفع ، من آب إذا رجع ، أى وحسن مرجع ، وهو الدار الآخرة .

﴿ **كذلك أرسلناك فى أمة قد خلت من قبلها أمم** ﴾ أى مثل ذلك الإرسال العظيم الشأن المشتمل على المعجزة الباهرة، أرسلناك يا محمد . وقيل : شبه الإنعام على من أرسل إليه محمد ﷺ بالإنعام على من أرسل إليه الأنبياء قبله . ومعنى ﴿**فى أمة قد خلت من قبلها أمم** ﴾ : فى قرن قد مضت من قبله قرون ، أو فى جماعة من الناس قد مضت من قبلها جماعات ﴿**لتتلوا عليهم الذى أوحينا إليك** ﴾ أى لتقرأ عليهم القرآن والحال أنهم ﴿ **يكفرون بالرحمن** ﴾ أى بالكثير الرحمة لعباده، ومن رحمته لهم : إرسال الرسل إليهم ، وإنزال الكتب عليهم كما قال سبحانه: ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] ، وجملة: ﴿ **قل هو ربى** ﴾ مستأنفة بتقدير سؤال ،كأنهم قالوا :وما الرحمن ؟فقال سبحانه: ﴿ **قل** ﴾ يا محمد : ﴿ **هو ربى**﴾ أى خالقى ﴿**لا إله إلا هو** ﴾ أى لا يستحق العبادة له والإيمان به سواه ﴿ **عليه توكلت**﴾ فى جميع أمورى ﴿**وإليه** ﴾ لا إلى غيره ﴿ **متاب** ﴾ أى توبتى ، وفيه تعريض بالكفار ، وحث لهم على الرجوع إلى الله ، والتوبة من الكفر، والدخول فى الإسلام.

وقد أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن عبد الرحمن بن سابط فى قوله :

﴿**وما الحياة الدنيا فى الآخرة إلا متاع** ﴾ قال : كزاد الراعى يزوده أهله الكف من التمر أو الشىء من الدقيق ، أو الشىء يشرب عليه اللبن . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى الآية قال : كان الرجل يخرج فى الزمان الأول فى إبله أو غنمه ، فيقول لأهله : متعونى فيمتعونه فلقة الخبز أو التمر. فهذا مثل ضربه الله للدنيا. وأخرج الترمذى وصححه عن عبد الله بن مسعود قال: نام رسول الله ﷺ على حصير فقام وقد أثر فى جنبه،فقلنا: يا رسول الله، لو اتخذنا لك؟ فقال: «ما لى وللدنيا، ما أنا فى الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها » [(١)] . وأخرج مسلم والترمذى والنسائى وابن ماجه عن المستورد قال : قال رسول الله ﷺ : « ما الدنيا فى الآخرة إلا كمثل ما يجعل أحدكم أصبعه هذه فى اليم، فلينظر بم يرجع ؟ » وأشار بالسبابة[(٢)].

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله : ﴿ **وتطمئن قلوبهم بذكر الله** ﴾ قال: هشت إليه واستأنست به . وأخرج أبو الشيخ عن السدى فى الآية قال: إذا حلف لهم بالله صدقوا . ﴿ **ألا بذكر الله تطمئن القلوب** ﴾ قال : تسكن . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى الآية قال : بمحمد وأصحابه . وأخرج أبو الشيخ عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ لأصحابه حين نزلت هذه الآية : ﴿ **ألا بذكر الله تطمئن القلوب** ﴾ : « هل تدرون ما معنى ذلك ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : « من أحب الله ورسوله وأحب أصحابى » .

وأخرج ابن مردويه عن على أن رسول الله ﷺ لما نزلت هذه الآية : ﴿ **ألا بذكر الله تطمئن القلوب** ﴾ قال : «ذاك من أحب الله ورسوله ، وأحب أهل بيتى صادقًا غير كاذب ، وأحب المؤمنين شاهداً وغائبًا ، ألا بذكر الله يتحابون » .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله :﴿ **طوبى لهم** ﴾ قال: فرح وقرة عين. وأخرج ابن أبى شيبة وهناد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن عكرمة فى قوله: ﴿ **طوبى لهم** ﴾ قال : نعم ما لهم . وقد روى عن جماعة من السلف نحو ما قدمنا ذكره من الأقوال والأرجح تفسير الآية بما روى مرفوعاً إلى النبى ﷺ . كما أخرجه أحمد وابن جرير وابن أبى حاتم وابن حبان والطبرانى وابن مردويه والبيهقى عن عتبة ابن عبد قال: جاء أعرابى إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، فى الجنة فاكهة ؟ قال : « نعم فيها شجرة تدعى طوبى » الحديث[(٣)] . وأخرج أحمد وأبو يعلى وابن جرير وابن أبى

---

(١) الترمذى فى الزهد (٢٣٧٧)، وقال : « هذا حديث حسن صحيح » وابن ماجه فى الزهد (٤١٠٩) .

(٢) مسلم فى الجنة (٢٨٥٨ / ٥٥) والترمذى فى الزهد (٢٣٢٣) وقال : « هذا حديث حسن صحيح » وابن ماجه فى الزهد (٤١٠٨) .

(٣) أحمد ٤/ ١٨٣ وابن جرير ١٣/ ١٠٠ وابن حبان (٧٣٧١) والطبرانى ١٧/ ١٢٦(٣١٢) وقال الهيثمى فى المجمع ١٠/ ٤١٢ : « وفيه عامر بن زياد البكالى وقد ذكره ابن أبى حاتم ولم يجرحه ولم يوثقه وبقية رجاله ثقات » وقال ابن كثير فى البداية ٢/ ١٥٧ : « قال الحافظ الضياء : لا أعلم لهذا الإسناد علة» .

حاتم وابن حبان والخطيب فى تاريخه عن أبى سعيد الخدرى عن رسول الله ﷺ ؛ أن رجلاً قال: يا رسول الله ، طوبى لمن رآك وآمن بك ، قال: « طوبى لمن آمن بى ورآنى ، ثم طوبى ثم طوبى ثم طوبى لمن آمن بى ولم يرنى » ، فقال رجل : وما طوبى ؟ قال : « شجرة فى الجنة مسير مائة عام ، ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها » الحديث[١] . وفى الباب أحاديث وآثار عن السلف، وقد ثبت فى الصحيحين وغيرهما من حديث أنس قال: قال رسول الله ﷺ : «وفى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلها مائة سنة ، اقرؤوا إن شئتم : ﴿ وظل ممدود ﴾[٢] [الواقعة: ٣٠] ، وفى بعض الألفاظ : إنها شجرة الخلد . وأخرج أبو الشيخ عن السدى ﴿**وحسن مآب**﴾ قال : حسن منقلب . وأخرج ابن جرير عن الضحاك مثله .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ **وهم يكفرون بالرحمن** ﴾ قال : ذكر لنا أن رسول الله ﷺ زمن الحديبية حين صالح قريشاً كتب فى الكتاب : بسم الله الرحمن الرحيم ، فقالت قريش : أما الرحمن فلا نعرفه، وكان أهل الجاهلية يكتبون باسمك اللهم ، فقال أصحابه: دعنا نقاتلهم ، فقال : « لا ، ولكن اكتبوا كما يريدون »[٣]. وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن جريج فى هذه الآية نحوه . وأخرج ابن أبى حاتم عن مجاهد ﴿**وإليه متاب**﴾ قال : توبتى .

﴿ **وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَل لِّلَّهِ الأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ (٣١) وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ (٣٢) أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي الأَرْضِ أَم بِظَاهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٣) لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ (٣٤) مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَّعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ (٣٥) ﴾ .

---

(١) أحمد ٣/ ٧١ وأبو يعلى (١٣٧٤) وإسناده ضعيف ، وابن جرير ١٣/ ١٠١ وابن حبان (٧١٨٦) ولم يذكر إلا شطره الأول .

(٢) أحمد ٣/ ١١٠ ، ١٣٥، ١٦٤ ، ١٨٥ ، ٢٠٧ ، ٢٣٤ والبخارى فى بدء الخلق (٣٢٥١) ومسلم فى الجنة (٢٨٢٦ / ٦، ٧) والترمذى فى التفسير (٣٢٩٢) وقال : « هذا حديث حسن صحيح » ورواية مسلم عن أبى هريرة .

(٣) ابن جرير ١٣/ ١٠١ .

قوله : ﴿ **ولو أن قرآنا سيرت به الجبال** ﴾ قيل : هذا متصل بقوله : ﴿ **لولا أنزل عليه آية من ربه** ﴾ وأن جماعة من الكفار سألوا رسول الله ﷺ أن يسير لهم جبال مكة حتى تنفسح فإنها أرض ضيقة، فأمره الله سبحانه بأن يجيب عليهم بهذا الجواب المتضمن لتعظيم شأن القرآن، وفساد رأى الكفار حيث لم يقنعوا به وأصروا على تعنتهم وطلبهم. ما لو فعله الله سبحانه لم يبق ما تقتضيه الحكمة الإلهية ، من عدم إنزال الآيات التى يؤمن عندها جميع العباد[1] ، ومعنى ﴿ **سيرت به الجبال** ﴾ أى بإنزاله وقراءته فسارت عن محل استقرارها ﴿**أو قطعت به الأرض** ﴾ أى صدعت حتى صارت قطعًا متفرقة ﴿ **أو كلم به الموتى** ﴾ أى صاروا أحياء بقراءته عليهم، فكانوا يفهمونه عند تكليمهم به كما يفهمه الأحياء .

وقد اختلف فى جواب « لو » ماذا هو ؟ فقال الفراء : هو محذوف ، وتقديره : لكان هذا القرآن ، وروى عنه أنه قال : إن الجواب : لكفروا بالرحمن ، أى لو فعل بهم هذا لكفروا بالرحمن، وقيل : جوابه لما آمنوا ، كما سبق فى قوله : ﴿ ما كانوا [2] ليؤمنوا إلا أن يشاء الله﴾ [الأنعام : ١١١] وقيل : الجواب متقدم وفى الكلام تقديم وتأخير ، أى وهم يكفرون بالرحمن لو أن قرآنا إلى آخره . وكثيراً ما تحذف العرب جواب « لو » إذا دل عليه سياق الكلام ، ومنه قول امرئ القيس :

فَلَوْ أنَّهَا نَفْسٌ تَمُوتُ جَمِيعةً ... وَلَكنَّها نَفْسٌ تَسَاقَطُ أنْفُسًا

أى لهان علىّ ذلك. ﴿ **بل لله الأمر جميعا** ﴾ أى لو أن قرآناً فعل به ذلك لكان هذا القرآن، ولكن لم يفعل بل فعل ما عليه الشأن الآن ، فلو شاء أن يؤمنوا لآمنوا ، وإذا لم يشأ أن يؤمنوا لم ينفع تسيير الجبال وسائر ما اقترحوه من الآيات ، فالإضراب متوجه إلى ما يؤدى إليه كون الأمر لله سبحانه ، ويستلزمه من توقف الأمر على ما تقتضيه حكمته ومشيئته ، ويدل على أن هذا هو المعنى المراد من ذلك قوله : ﴿ **أفلم ييأس الذين آمنوا أن لويشاء الله لهدى الناس جميعا** ﴾ قال الفراء : قال الكلبى : ﴿ **أفلم ييأس** ﴾ بمعنى : أفلم يعلم وهى لغة النخع . قال فى الصحاح : وقيل : هى لغة هوازن ، وبهذا قال جماعة من السلف . قال أبو عبيدة : أفلم يعلموا ويتبينوا ، قال الزجاج : وهو مجاز لأن اليائس من الشىء عالم بأنه لا يكون ، نظيره استعمال الرجاء فى معنى الخوف ، والنسيان فى الترك لتضمنهما إياهما ، ويؤيده قراءة على وابن عباس وجماعة : « أفلم يتبين » ، ومن هذا قول رباح بن عدى :

ألَمْ يَيْأسِ الأقْوَام أنى أنَا ابْنُهُ ... وإن كُنْتُ عَنْ أرْضِ العَشيرةِ نَائيا

أى لم يعلم ، وأنشد فى هذا أبو عبيدة قول مالك بن عوف النضرى :

أقُولُ لَهُمْ بالشِّعْبِ إذْ يَأسِرونَنِى ... ألَمْ تَيْأسُوا أنِّى ابْنُ فَارِسِ زَهْدَمِ

---

(١) ابن جرير ١٣/ ١٠٢ .

(٢) فى المخطوطة : « وما كانوا » ، والصواب ما أثبتناه .

أى لم تعلموا ، فمعنى الآية على هذا: أفلم يعلم الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعًا من غير أن يشاهدوا الآيات . وقيل : إن الإياس على معناه الحقيقى ، أى أفلم ييأس الذين آمنوا من إيمان هؤلاء الكفار لعلمهم أن الله تعالى لو أراد هدايتهم لهداهم ؛ لأن المؤمنين تمنوا نزول الآيات التى اقترحها الكفار طمعًا فى إيمانهم ﴿ **ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة** ﴾ هذا وعيد للكفار على العموم ، أو لكفار مكة على الخصوص ، أى لا يزال الذين كفروا تصيبهم بسبب ما صنعوا من الكفر والتكذيب للرسل قارعة ، أى داهية تفجؤهم يقال : قرعه الأمر: إذا أصابه ، والجمع قوارع ، والأصل فى القرع: الضرب. قال الشاعر(١) :

أفنى تلادى وما جمعت من نشب ... قرع القراقير أفواه الأباريق

والمعنى : أن الكفار لا يزالون كذلك حتى تصيبهم داهية مهلكة من قتل أو أسر ، أو جدب أو نحو ذلك من العذاب ، وقد قيل : إن القارعة : النكبة . وقيل : الطلائع والسرايا، ولا يخفى أن القارعة تطلق على ما هو أعم من ذلك ﴿ **أو تحل** ﴾ أى القارعة ﴿ **قريبا من دارهم**﴾ فيفزعون منها ، ويشاهدون من آثارها ما ترجف له قلوبهم ، وترعد منه بوادرهم . وقيل : إن الضمير فى :﴿ **تحل** ﴾ للنبى ﷺ ، والمعنى : أو تحل أنت يا محمد قريبا من دارهم محاصراً لهم آخذاً بمخانقهم كما وقع منه ﷺ لأهل الطائف .﴿ **حتى يأتى وعد الله** ﴾ وهو موتهم ، أو قيام الساعة عليهم ، فإنه إذا جاء وعد الله المحتوم حل بهم من عذابه ما هو الغاية فى الشدة . وقيل : المراد بوعد الله هنا : الإذن منه بقتال الكفار ، والأول أولى ﴿ **إن الله لا يخلف الميعاد**﴾ فما جرى به وعده فهو كائن لا محالة.

﴿ **ولقد استهزئ برسل من قبلك فأمليت للذين كفروا** ﴾ التنكير فى رسل للتكثير ، أى برسل كثيرة ، والإملاء : الإهمال . وقد مر تحقيقه فى الأعراف ﴿ **ثم أخذتهم** ﴾ بالعذاب الذى أنزلته بهم ﴿ **فكيف كان عقاب**﴾ الاستفهام للتقريع والتهديد ؛ أى فكيف كان عقابى لهؤلاء الكفار الذين استهزؤوا بالرسل ، فأمليت لهم ثم أخذتهم .

ثم استفهم سبحانه استفهامًا آخر للتوبيخ والتقريع يجرى مجرى الحجاج للكفار واستركاك صنعهم والإزراء عليهم ، فقال : ﴿ **أفمن هو قائم على كل نفس** ﴾ القائم : الحفيظ والمتولى للأمور ، وأراد سبحانه نفسه ، فإنه المتولى لأمور خلقه المدبر لأحوالهم بالآجال والأرزاق وإحصاء الأعمال على كل نفس من الأنفس كائنة ما كانت. والجواب محذوف ، أى أفمن هو بهذه الصفة كمن ليس بهذه الصفة من معبوداتكم التى لا تنفع ولا تضر . قال الفراء : كأنه فى المعنى : أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت كشركائهم الذين اتخذوهم من دون الله .

---

(١) هو المغيرة بن عبد الله الأسدى لقب بالأقيشر؛ لأنه كان أحمر الوجه أقشر وكان يغضب من هذا اللقب . عرّفه الآمدى بصاحب الشراب لقوله هذا البيت ، ولد فى الجاهلية ونشأ فى الإسلام وقتل أيام عبد الملك بن مروان. الأعلام ٧/ ٢٧٧ .

والمراد من الآية إنكار المماثلة بينهما . وقيل : المراد بمن هو قائم على كل نفس : الملائكة الموكلون ببنى آدم ، والأول أولى، وجملة : ﴿ **وجعلوا لله شركاء** ﴾ معطوفة على الجواب المقدر مبينة له أو حالية بتقدير قد ، أى وقد جعلوا ، أو معطوفة على ﴿ **ولقد استهزئ** ﴾ أى استهزؤوا وجعلوا ﴿ **قل سموهم** ﴾ أى قل : يا محمد : جعلتم له شركاء فسموهم من هم ؟ وفى هذا تبكيت لهم وتوبيخ ؛ لأنه إنما يقال هكذا فى الشىء المستحقر الذى لا يستحق أن يلتفت إليه فيقال: سمه إن شئت ، يعنى أنه أحقر من أن يسمى . وقيل : إن المعنى سموهم بالآلهة كما تزعمون ، فيكون ذلك تهديدا لهم ﴿ **أم تنبئونه** ﴾ أى بل أتنبئون الله ﴿ **بما لا يعلم فى الأرض** ﴾ من الشركاء الذين تعبدونهم مع كونه العالم بما فى السموات والأرض ﴿ **أم بظاهر من القول** ﴾ أى بل أتسمونهم شركاء بظاهر من القول من غير أن تكون له حقيقة ، وقيل : المعنى : قل لهم: أتنبئون الله بباطن لا يعلمه أم بظاهر يعلمه ؟ فإن قالوا بباطن لا يعلمه فقد جاؤوا بدعوى باطلة، وإن قالوا بظاهر يعلمه فقل لهم : سموهم ، فإذا سموا اللات والعزى ونحوهما ، فقل لهم : إن الله لا يعلم لنفسه شريكاً ، وإنما خص الأرض بنفى الشريك عنها، وإن لم يكن له شريك فى غير الأرض، لأنهم ادعوا له شريكاً فى الأرض. وقيل : معنى ﴿ **أم بظاهر من القول** ﴾ : أم بزائل من القول باطل ، ومنه قول الشاعر :

أعَيَّرْتَنَا أَلْبَانَهَا وَلُحُومَهَا وَذَلِكَ عارٌ يابن ريطَةَ ظَاهِرُ

أى زائل باطل . وقيل : بكذب من القول . وقيل : معنى ﴿ **بظاهر من القول** ﴾ : بحجة من القول ظاهرة على زعمهم ﴿ **بل زين للذين كفروا مكرهم** ﴾ أى ليس لله شريك ، بل زين للذين كفروا مكرهم . وقرأ ابن عباس : «زين » على البناء للفاعل على أن الذى زين لهم ذلك هو مكرهم . وقرأ من عداه بالبناء للمفعول ، والمزين هو الله سبحانه ، أو الشيطان ، ويجوز أن يسمى المكر كفرًا ؛ لأن مكرهم برسول الله ﷺ كان كفرًا . وأما معناه الحقيقى فهو الكيد ، أوالتمويه بالأباطيل ﴿ **وصدوا عن السبيل** ﴾ قرأ حمزة والكسائى وعاصم :﴿ **صدوا** ﴾ على البناء للمفعول ، أى صدهم الله، أو صدهم الشيطان ، وقرأ الباقون على البناء للفاعل ، أى صَدُّوا غيرهم ، واختار هذه القراءة أبو حاتم ، وقرأ يحيى بن وثاب بكسر الصاد .﴿ **ومن يضلل الله فما له من هاد** ﴾ أى يجعله ضالاً وتقتضى مشيئته إضلاله فما له من هاد يهديه إلى الخير ، قرأ الجمهور : ﴿ **هاد** ﴾ من دون إثبات الياء على اللغة الكثيرة الفصيحة ، وقرئ بإثباتها على اللغة القليلة . ثم بين سبحانه ما يستحقونه فقال : ﴿ **لهم عذاب فى الحياة الدنيا** ﴾ بما يصابون به من القتل والأسر وغير ذلك . ﴿**ولعذاب الآخرة أشق** ﴾ عليهم من عذاب الحياة الدنيا ﴿ **وما لهم من الله من واق** ﴾ يقيهم عذابه ، ولا عاصم يعصمهم منه.

ثم لما ذكر سبحانه مما يستحقه الكفار من العذاب فى الأولى والأخرى ، ذكر ما أعده

للمؤمنين فقال : ﴿ **مثل الجنة التى وعد المتقون تجرى من تحتها الأنهار** ﴾ أى صفتها العجيبة الشأن التى هى فى الغرابة كالمثل . قال ابن قتيبة : المثل الشبه فى أصل اللغة ، ثم قد يصير بمعنى صورة الشىء وصفته ، يقال : مثلت لك كذا ، أى صورته ووصفته، فأراد هنا بمثل الجنة صورتها وصفتها ، ثم ذكرها فقال : ﴿ **تجرى من تحتها الأنهار** ﴾ وهو كالتفسير للمثل . قال سيبويه : وتقديره فيما قصصنا عليك مثل الجنة ، وقال الخليل وغيره : إن ﴿ **مثل الجنة** ﴾ مبتدأ، والخبر : ﴿ **تجرى** ﴾ . وقال الزجاج : إنه تمثيل للغائب بالشاهد ، ومعناه مثل الجنة جنة تجرى من تحتها الأنهار . وقيل : إن فائدة الخبر ترجع إلى : ﴿ **أكلها دائم** ﴾ أى لا ينقطع ، ومثله قوله سبحانه: ﴿ لا مقطوعة ولا ممنوعة ﴾ [الواقعة : ٣٣] وقال الفراء : المثل مقحم للتأكيد ، والمعنى: الجنة التى وعد المتقون تجرى من تحتها الأنهار ، والعرب تفعل ذلك كثيراً ﴿ **وظلها** ﴾ أى كذلك دائم لا يتقلص ولا تنسخه الشمس . والإشارة بقوله : ﴿**تلك** ﴾ إلى الجنة الموصوفة بالصفات المتقدمة ، وهو مبتدأ خبره : ﴿ **عقبى الذين اتقوا** ﴾ أى عاقبة الذين اتقوا المعاصى ، ومنتهى أمرهم . ﴿ **وعقبى الكافرين النار** ﴾ ليس لهم عاقبة ولا منتهى إلا ذلك .

وقد أخرج الطبرانى وأبو الشيخ عن ابن عباس قال : قالوا للنبى ﷺ : إن كان كما تقول فأرنا أشياخنا الأول من الموتى نكلمهم ، وأفسح لنا هذه الجبال جبال مكة التى قد ضمتنا ، فنزلت : ﴿ **ولو أن قرآنا سيرت به الجبال** ﴾ الآية[1]. وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن عطية العوفى قال : قالوا لمحمد ﷺ : لو سيرت لنا جبال مكة حتى تتسع فنحرث فيها ، أو قطعت لنا الأرض كما كان سليمان يقطع لقومه بالريح ، أوأحييت لنا الموتى ، كما كان يحيى عيسى الموتى لقومه ، فأنزل الله : ﴿ **ولو أن قرآنا سيرت به الجبال** ﴾ الآية إلى قوله: ﴿**أفلم ييأس الذين آمنوا** ﴾ قال : أفلم يتبين الذين آمنوا ، قالوا : هل تروى هذا الحديث عن أحد من أصحاب النبى ﷺ ؟ قال : عن أبى سعيد الخدرى عن النبى ﷺ . وأخرجه أيضًا ابن أبى حاتم قال : حدثنا أبو زرعة حدثنا منجاب بن الحرث ، أخبرنا بشر بن عمارة ، حدثنا عمر بن حسان عن عطية العوفى فذكره . وأخرج ابن جرير وابن مردويه من طريق العوفى عن ابن عباس نحوه مختصراً . وأخرج أبو يعلى ، وأبو نعيم فى الدلائل ، وابن مردويه عن الزبير بن العوام فى ذكر سبب نزول الآية نحو ما تقدم مطولا [2] . وأخرج ابن إسحاق وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **بل لله الأمر جميعا** ﴾ لا يصنع من ذلك إلا ما يشاء ولم يكن ليفعل . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس ﴿ **أفلم ييأس** ﴾

---

(١) الطبرانى (١٢٦١٧) وقال الهيثمى فى المجمع ٤٦/٧ : « وفيه قابوس بن أبى ظبيان وهو ضعيف ، وقد وثق».

(٢) أبو يعلى (٦٧٩) وإسناده ضعيف .

يقول : يعلم . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ من طريق أخرى عنه نحوه . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن أبى العالية . ﴿ **أفلم ييأس** ﴾ قال : قد يئس الذين آمنوا أن يهدوا ولو شاء الله لهدى الناس جميعا .

وأخرج الفريابى وابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **تصيبهم بما صنعوا قارعة** ﴾ قال : السرايا . وأخرج الطيالسى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه ، والبيهقى فى الدلائل عنه نحوه ، وزاد : ﴿ **أو تحل قريبا من دارهم** ﴾ قال : أنت يا محمد حتى يأتى وعد الله ، قال : فتح مكة . وأخرج ابن مردويه عن أبى سعيد نحوه . وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم عن ابن عباس ﴿ **قارعة** ﴾ قال: نكبة . وأخرج ابن جرير وابن مردويه من طريق العوفى عنه قارعة ، قال : عذاب من السماء ﴿ **أو تحل قريبا من دارهم** ﴾ يعنى : رسول الله ﷺ بهم وقتاله آباءهم .

وأخرج ابن جرير وابن مردويه عنه أيضاً فى قوله : ﴿ **أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت** ﴾ قال: يعنى بذلك : نفسه . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن عطاء فى الآية قال: الله تعالى قائم بالقسط والعدل على كل نفس . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿ **أم بظاهر من القول** ﴾ قال : الظاهر من القول : هو الباطل .

وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن عكرمة فى قوله : ﴿ **مثل الجنة** ﴾ قال : نعت الجنة ، ليس للجنة مثل . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن إبراهيم التيمى فى قوله : ﴿**أكلها دائم**﴾ قال : لذاتها دائمة فى أفواههم .

﴿ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ (٣٦) وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلا وَاقٍ (٣٧) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ (٣٨) يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ (٣٩) ﴾ .

اختلف المفسرون فى تفسير الكتاب المذكور ، فقيل : هو التوراة والإنجيل ، والذين يفرحون بما أنزل إلى رسول الله ﷺ هم من أسلم من اليهود والنصارى . وقيل : الذين يفرحون هم أهل الكتابين لكون ذلك موافقاً لما فى كتبهم مصدقاً له ، فعلى الأول يكون المراد بقوله . ﴿ **ومن الأحزاب من ينكر بعضه** ﴾ : من لم يسلم من اليهود والنصارى ، وعلى الثانى يكون المراد به : المشركين من أهل مكة ومن يماثلهم أو يكون المراد به : البعض من أهل الكتابين ، أى من أحزابهما فإنهم أنكروه لما يشتمل عليه من كونه ناسخاً لشرائعهم فيتوجه فرح

من فرح به منهم إلى ما هو موافق لما فى الكتابين ، وإنكار من أنكر منهم إلى ما خالفهما. وقيل: المراد بالكتاب : القرآن ، والمراد بمن يفرح به المسلمون ، والمراد بالأحزاب : المتحزبون على رسول الله ﷺ من المشركين واليهود والنصارى ، والمراد بالبعض الذى أنكروه: من خالف ما يعتقدونه على اختلاف اعتقادهم . واعترض على هذا بأن فرح المسلمين بنزول القرآن معلوم فلا فائدة فى ذكره ، وأجيب عنه بأن المراد : زيادة الفرح والاستبشار . وقال كثير من المفسرين : إن عبد الله بن سلام والذين آمنوا معه من أهل الكتاب ساءهم قلة ذكر الرحمن فى القرآن مع كثرة ذكره فى التوراة ، فأنزل الله : ﴿ قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن ﴾ [الإسراء: ١١٠] ففرحوا بذلك . ثم لما بين ما يحصل بنزول القرآن من الفرح للبعض والإنكار للبعض صرح بما عليه رسول الله ﷺ ، وأمره أن يقول لهم ذلك فقال : ﴿ **قل إنما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به** ﴾ أى لا أشرك به بوجه من الوجوه ، أى قل لهم يا محمد إلزاماً للحجة، وردا للإنكار : إنما أمرت فيما أنزل إلىّ بعبادة الله وتوحيده ، وهذا أمر اتفقت عليه الشرائع وتطابقت على عدم إنكاره جميع الملل المقتدية بالرسل . وقد اتفق القراء على نصب : ﴿ **ولا أشرك به** ﴾ عطفاً على ﴿ **أعبد** ﴾ وقرأ أبو خليد بالرفع على الاستئناف ، وروى هذه القراءة عن نافع ﴿ **إليه أدعو** ﴾ أى إلى الله لا إلى غيره أو إلى ما أمرت به ، وهو عبادة الله وحده ، والأول أولى لقوله : ﴿ **وإليه مآب** ﴾ فإن الضمير لله سبحانه ، أى إليه وحده لا إلى غيره مرجعى .

ثم ذكر بعض فضائل القرآن وأوعد على الإعراض عن اتباعه مع التعرض لرد ما أنكروه من اشتماله على نسخ بعض شرائعهم فقال : ﴿ **وكذلك أنزلناه حكما عربيا** ﴾ أى مثل ذلك الإنزال البديع أنزلنا القرآن مشتملاً على أصول الشرائع وفروعها . وقيل : المعنى : وكما أنزلنا الكتب على الرسل بلغاتهم ، كذلك أنزلنا عليك القرآن بلسان العرب ونريد بالحكم ما فيه من الأحكام، أو حكمة عربية سترجمة بلسان العرب ، وانتصاب ﴿ **حكما** ﴾ على الحال ﴿ **ولئن اتبعت أهواءهم**﴾ التى يطلبون منك موافقتهم عليها كالاستمرار منك على التوجه إلى قبلتهم وعدم مخالفتك لشىء مما يعتقدونه ﴿ **بعد ما جاءك من العلم** ﴾ الذى علمك الله إياه ﴿ **مالك من الله** ﴾ أى من جنابه ﴿ **من ولى** ﴾ يلى أمرك وينصرك ﴿ **ولا واق** ﴾ يقيك من عذابه . والخطاب لرسول الله ﷺ تعريض لأمته . واللام فى ﴿ **ولن اتبعت** ﴾ هى الموطئة للقسم ، و﴿**مالك** ﴾ ساد مسد جواب القسم والشرط .

﴿ **ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجا وذرية** ﴾ أى إن الرسل الذين أرسلناهم قبلك هم من جنس البشر ، لهم أزواج من النساء ، ولهم ذرية توالدوا منهم ومن أزواجهم ، ولم نرسل الرسل من الملائكة الذين لا يتزوجون ولا يكون لهم ذرية . وفى هذا رد على من كان ينكر على رسول الله ﷺ تزوجه بالنساء ، أى أن هذا شأن رسل الله المرسلين من قبل هذا

الرسول فما بالكم تنكرون عليه ما كانوا عليه ؟ ! ﴿ **وما كان لرسول أن يأتى بآية إلا بإذن الله** ﴾ أى لم يكن لرسول من الرسل أن يأتى بآية من الآيات ومن جملتها ما اقترحه عليه الكفار إلا بإذن الله سبحانه ، وفيه رد على الكفار حيث اقترحوا على رسول الله ﷺ من الآيات ما اقترحوه بما سبق ذكره . ﴿ **لكل أجل كتاب** ﴾ أى لكل أمر مما قضاه الله ، أو لكل وقت من الأوقات التى قضى الله بوقوع أمر فيها كتاب عند الله يكتبه على عباده ويحكم به فيهم . وقال الفراء : فيه تقديم وتأخير ، والمعنى : لكل كتاب أجل ، أى لكل أمر كتبه الله أجل مؤجل ، ووقت معلوم ، كقوله سبحانه : ﴿ لكل نبأ مستقر ﴾ [الأنعام:٦٧] وليس الأمر على حسب إرادة الكفار واقتراحاتهم ، بل على حسب ما يشاؤه ويختاره .

﴿ **يمحو الله ما يشاء ويثبت** ﴾ أى يمحو من ذلك الكتاب ويثبت ما يشاء منه ، يقال : محوت الكتاب محواً : إذا أذهبت أثره . قرأ ابن كثير وأبو عمر وعاصم : ﴿ **ويثبت** ﴾ بالتخفيف ، وقرأ الباقون بالتشديد ، واختار هذه القراءة أبو حاتم وأبو عبيد ، وظاهر النظم القرآنى العموم فى كل شىء مما فى الكتاب ، فيمحو ما يشاء محوه من شقاوة أو سعادة أو رزق أو عمر ، أو خير أو شر ، ويبدل هذا بهذا ويجعل هذا مكان هذا ﴿ لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ﴾ [الأنبياء:٢٣] . وإلى هذا ذهب عمر بن الخطاب وعبد الله بن مسعود وابن عباس وأبو وائل وقتادة والضحاك وابن جريج وغيرهم . وقيل : الآية خاصة بالسعادة والشقاوة . وقيل: يمحو ما يشاء من ديوان الحفظة ، وهو ما ليس فيه ثواب ولا عقاب ، ويثبت ما فيه الثواب والعقاب . وقيل : يمحو ما يشاء من الرزق . وقيل : يمحو من الأجل . وقيل : يمحو ما يشاء من الشرائع فينسخه ويثبت ما يشاء فلا ينسخه . وقيل : يمحو ما يشاء من ذنوب عباده ويترك ما يشاء. وقيل : يمحو ما يشاء من الذنوب بالتوبة، ويترك ما يشاء منها مع عدم التوبة. وقيل : يمحو الآباء ويثبت الأبناء . وقيل : يمحو القمر ويثبت الشمس كقوله : ﴿ فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة ﴾ [الإسراء:١٢] . وقيل : يمحو ما يشاء من الأرواح التى يقبضها حال النوم فيميت صاحبه ويثبت ما يشاء فيرده إلى صاحبه . وقيل : يمحو ما يشاء من القرون ويثبت ما يشاء منها . وقيل : يمحو الدنيا ويثبت الآخرة . وقيل غير ذلك مما لا حاجة إلى ذكره ، والأول أولى كما تفيده « ما » فى قوله : ﴿ **ما يشاء** ﴾ من العموم مع تقدم ذكر الكتاب فى قوله : ﴿ **لكل أجل كتاب** ﴾ ومع قوله: ﴿ **وعنده أم الكتاب** ﴾ أى أصله وهو اللوح المحفوظ ، فالمراد من الآية : أنه يمحو ما يشاء مما فى اللوح المحفوظ فيكون كالعدم ، ويثبت ما يشاء مما فيه فيجرى فيه قضاؤه وقدره على حسب ما تقتضيه مشيئته ، وهذا لا ينافى ما ثبت عنه ﷺ من قوله : « جفَّ القلم » (١). وذلك لأن المحو والإثبات هو من جملة ما قضاه الله سبحانه. وقيل : إن أم الكتاب : هو علم الله تعالى بما خلق وما هو خالق.

---

(١) جزء من حديث رواه أحمد ٢/ ١٧٦ والترمذي فى الإيمان (٢٦٤٢) وقال: «هذا حديث حسن» وابن حبان =

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله : ﴿ **يفرحون بما أنزل إليك** ﴾ قال : أولئك أصحاب محمد ﷺ فرحوا بكتاب الله وبرسله وصدقوا به ﴿**ومن الأحزاب من ينكر بعضه** ﴾ يعنى اليهود والنصارى والمجوس . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن زيد فى الآية قال : هؤلاء من آمن برسول الله ﷺ من أهل الكتاب يفرحون بذلك . ﴿ ومنهم من يؤمن به ومنهم من لا يؤمن به ﴾ [يونس: ٤٠] . ﴿ **ومن الأحزاب من ينكر بعضه** ﴾ قال : الأحزاب : الأمم اليهود والنصارى والمجوس . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله : ﴿ **وإليه مآب** ﴾ قال : إليه مصير كل عبد .

وأخرج ابن ماجة وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى وأبو الشيخ وابن مردويه من طريق قتادة عن الحسن عن سمرة قال : نهى رسول الله ﷺ عن التبتل [١] ، وقرأ قتادة ﴿ **ولقد أرسلنا رسلا من قبلك** ﴾ الآية . وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عن سعد بن هشام قال : دخلت على عائشة فقلت : إنى أريد أن أتبتل ؟ قالت: لا تفعل أما سمعت الله يقول:﴿ **ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجا وذرية** ﴾ . وقد ورد فى النهى عن التبتل والترغيب فى النكاح ما هو معروف [٢] .

وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد قال : قالت قريش حين أنزل : ﴿ **وما كان لرسول أن يأتى بآية إلا بإذن الله** ﴾ ما نراك يا محمد تملك من شىء ، ولقد فرغ من الأمر ، فأنزلت هذه الآية تخويفاً لهم ووعيداً لهم : ﴿ **يمحو الله ما يشاء ويثبت**﴾ إنا إن شئنا أحدثنا له من أمرنا شيئا ، ويحدث الله فى كل رمضان فيمحو ما يشاء ويثبت من أرزاق الناس ومصائبهم وما يعطيهم وما يقسم لهم . وأخرج عبد الرزاق والفريابى وابن جرير وابن نصر وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى الشعب عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **يمحو الله ما يشاء ويثبت** ﴾ قال : ينزل الله فى كل شهر رمضان إلى سماء الدنيا فيدبر أمر السنة إلى السنة ، فيمحو ما يشاء ويثبت ، إلا الشقاوة والسعادة والحياة والموت [٣] . وأخرج ابن جرير

= (٦١٣٧) كلهم عن عبد الله بن عمرو ، وجزء من حديث آخر رواه البخارى فى النكاح (٥٠٧٦) والنسائى ٦/ ٥٩ كلاهما عن أبى هريرة .

(١) أحمد ٥/ ١٧ والترمذى فى النكاح (١٠٨٢) وقال : « حديث حسن غريب » والنسائى ٦/ ٥٩ وابن ماجه فى النكاح (١٨٤٩) والطبرانى (٦٨٩٣) .

(٢) من ذلك ما أخرجه البخارى فى النكاح (٥٠٧٥) عن إسماعيل بن قيس قال : قال عبد الله : كنا نغزو مع رسول الله ﷺ وليس لنا شىء ، فقلنا : ألا نستخصى ؟ فنهانا عن ذلك ، ثم رخص لنا أن ننكح المرأة بالثوب، ثم قرأ علينا : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين** ﴾ [المائدة: ٨٧] .

(٣) ابن جرير ١٣/ ١١١ والبيهقى فى الشعب (٣٣٩٤) .

وابن أبى حاتم عنه فى الآية قال : هو الرجل يعمل الزمان بطاعة الله ، ثم يعود لمعصية الله فيموت على ضلالة ، فهو الذى يمحو ، والذى يثبت الرجل يعمل بمعصية الله ، وقد سبق له خير حتى يموت على طاعة الله .

وأخرج ابن جرير ومحمد بن نصر وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم وصححه عنه أيضاً فى الآية قال : هما كتابان يمحو الله ما يشاء من أحدهما ويثبت ، وعنده أم الكتاب ، أى جملة الكتاب (١) . وأخرج ابن جرير عنه أيضا قال : إن لله لوحاً محفوظاً مسيرة خمسمائة عام من درة بيضاء ، له دفتان من ياقوت ، والدفتان لوحان لله كل يوم ثلاث وستون لحظة ﴿**يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب**﴾ وإسناده عند ابن جرير هكذا: حدثنا محمد بن سهل بن عسكر ، حدثنا عبد الرزاق ، أخبرنا ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس فذكره (٢) .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه والطبرانى عن أبى الدرداء قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله ينزل فى ثلاث ساعات يبقين من الليل فيفتح الذكر فى الساعة الأولى منها، ينظر فى الذكر الذى لا ينظر فيه أحد غيره فيمحو الله ما يشاء ويثبت » الحديث (٣) . وأخرج الطبرانى فى الأوسط ، وابن مردويه بإسناد ، قال السيوطى : ضعيف ، عن ابن عمر؛ سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يمحو الله ما يشاء ويثبت إلا الشقاوة والسعادة والحياة والممات» . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس مرفوعاً نحوه . وأخرج الحاكم وصححه ، عن ابن عباس قال : لا ينفع الحذر من القدر ، ولكن الله يمحو بالدعاء ما يشاء من القدر (٤) . وأخرج ابن جرير عن قيس بن عباد قال : العاشر من رجب وهو يوم يمحو الله فيه ما يشاء . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى الشعب عنه نحوه بأطول منه .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن عمر بن الخطاب ؛ أنه قال وهو يطوف بالبيت : اللهم إن كنت كتبت على شقوة أو ذنباً فامحه فإنك **تمحو** ما تشاء وتثبت وعندك أم الكتاب فاجعله سعادة ومغفرة . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر والطبرانى عن ابن مسعود نحوه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى المدخل عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **يمحو الله ما يشاء ويثبت** ﴾ قال : يبدل الله ما يشاء من القرآن فينسخه ، ويثبت ما يشاء فلا يبدله ﴿ **وعنده أم الكتاب** ﴾ يقول : وجملة ذلك عنده فى أم الكتاب : الناسخ والمنسوخ ما يبدل ، وما يثبت كل ذلك فى كتاب (٥) . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس: ﴿ **وعنده أم الكتاب** ﴾ قال : الذكر . وأخرج ابن المنذر عن مجاهد مثله . وأخرج عبد الرزاق

---

(١) ابن جرير ١٣/ ١١٢ والحاكم ٢/ ٣٤٩ وقال : « غريب صحيح » ووافقه الذهبى .

(٢) ابن جرير ١٣/ ١١٥ .

(٣) ابن جرير ١٣/ ١١٤ وقال الهيثمى فى المجمع ١٠/ ٤١٥ : «رواه البزار وفيه زيادة بن محمد، وهو ضعيف».

(٤) صححه الحاكم ٢/ ٣٥٠ ووافقه الذهبى .

(٥) ابن جرير ١٣/ ١١٥ .

وابن جرير عن يسار عن ابن عباس ؛ أنه سأل كعبا عن أم الكتاب فقال : علم الله ما هو خالق وما خلقه عاملون ، فقال لعلمه : كن كتاباً ، فكان كتابا .

﴿ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ (٤٠) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِى الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٤١) وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ (٤٢) وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ (٤٣) ﴾ .

﴿ **وإن ما نرينك** ﴾ « ما » زائدة ، وأصله : وإن نرك ﴿ **بعض الذى نعدهم** ﴾ من العذاب كما وعدناهم بذلك بقولنا : ﴿ **لهم عذاب فى الحياة الدنيا** ﴾ وبقولنا : ﴿ **ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة** ﴾ والمراد : أريناك بعض ما نعدهم قبل موتك ، أو توفيناك قبل إراءتك لذلك ﴿ **فإنما عليك البلاغ** ﴾ أى فليس عليك إلا تبليغ أحكام الرسالة ولا يلزمك حصول الإجابة منهم لما بلغته إليهم ﴿ **وعلينا الحساب** ﴾ أى محاسبتهم بأعمالهم ومجازاتهم عليها ، وليس ذلك عليك . وهذا تسلية من الله سبحانه لرسوله ﷺ وإخبار له أنه قد فعل ما أمره الله به وليس عليه غيره ، وأن من لم يجب دعوته ، ويصدق نبوءته فالله سبحانه محاسبه على ما اجترم واجترأ عليه من ذلك .

﴿ **أو لم يروا** ﴾ يعنى : أهل مكة ، والاستفهام للإنكار ، أى أو لم ينظروا ﴿ **أنا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها** ﴾ أى نأتى أرض الكفر كمكة ننقصها من أطرافها بالفتوح على المسلمين منها شيئا فشيئا . قال الزجاج : أعلم الله أن بيان ما وعد المشركين من قهرهم قد ظهر ، يقول : أو لم يروا أنا فتحنا على المسلمين من الأرض ما قد تبين لهم فكيف لا يعتبرون؟ وقيل : إن معنى الآية : موت العلماء والصلحاء ، قال القشيرى : وعلى هذا فالأطراف : الأشراف . وقد قال ابن الأعرابى : الطرف : الرجل الكريم . قال القرطبى : وهذا القول بعيد؛ لأن مقصود الآية : أنا أريناهم النقصان فى أمرهم ليعلموا أن تأخير العقاب عنهم ليس عن عجز إلا أن يحمل على موت أحبار اليهود والنصارى [1] . وقيل : المراد من الآية : خراب الأرض المعمورة حتى يكون العمران فى ناحية منها . وقيل : المراد بالآية : هلاك من هلك من الأمم . وقيل : المراد : نقص ثمرات الأرض . وقيل : المراد : جور ولاتها حتى تنقص .

﴿ **والله يحكم لا معقب لحكمه** ﴾ أى يحكم ما يشاء فى خلقه ، فيرفع هذا ويضع هذا ، ويحيى هذا ويميت هذا ، ويغنى هذا ،ويفقر هذا ، وقد حكم بعزة الإسلام وعلوه على الأديان.

---

(١) القرطبى ٥ / ٣٥٦٢ .

وجملة : ﴿ **لا معقب لحكمه** ﴾ فى محل نصب على الحال . وقيل : معترضة . والمعقب : الذى يتبع الشىء فيستدركه ، ولا يستدرك أحد عليه ، والمراد من الآية : أنه لا يتعقب أحد حكم الله سبحانه بنقص ولا تغيير . ﴿ **وهو سريع الحساب** ﴾ فيجازى المحسن بإحسانه ، والمسىء بإساءته على السرعة ﴿ **وقد مكر الذين من قبلهم فلله المكر جميعا** ﴾ أى وقد مكر الكفار الذين من قبل كفار مكة بمن أرسله الله إليهم من الرسل ؛ فكادوهم وكفروا بهم . وهذا تسلية من الله سبحانه لرسوله ﷺ حيث أخبره أن هذا ديدن الكفار من قديم الزمان مع رسل الله سبحانه ، ثم أخبره بأن مكرهم هذا كالعدم ، وأن المكر كله لله ، فقال : ﴿ **فلله المكر جميعا** ﴾ لا اعتداد بمكر غيره ، ثم فسر سبحانه هذا المكر الثابت له دون غيره فقال : ﴿ **يعلم ما تكسب كل نفس** ﴾ من خير وشر فيجازيها على ذلك . ومن علم ما تكسب كل نفس وأعد لها جزاءها كان المكر كله له ؛ لأنه يأتيهم من حيث لا يشعرون . وقال الواحدى : إن مكر الماكرين مخلوق فلا يضر إلا بإرادته . وقيل : المعنى : فلله جزاء مكر الماكرين ﴿ **وسيعلم الكفار لمن عقبى الدار** ﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو : « الكافر » بالإفراد ، وقرأ الباقون: ﴿ **الكفار** ﴾ بالجمع ، أى سيعلم جنس الكافر لمن العاقبة المحمودة من الفريقين فى دار الدنيا ، أو فى الدار الآخرة ، أو فيهما . وقيل : المراد بالكافر : أبو جهل .

﴿ **ويقول الذين كفروا لست مرسلا** ﴾ أى يقول المشركون أو جميع الكفار : لست يا محمد مرسلاً إلى الناس من الله ، فأمره الله سبحانه بأن يجيب عليهم فقال : ﴿ **قل كفى بالله شهيدا بينى وبينكم** ﴾ فهو يعلم صحة رسالتى وصدق دعواتى ويعلم كذبكم ﴿ **ومن عنده علم الكتاب**﴾ أى علم جنس الكتاب كالتوراة والإنجيل ، فإن أهلهما العالمين بهما يعلمون صحة رسول الله ﷺ ، وقد أخبر بذلك من أسلم كعبد الله بن سلام وسلمان الفارسى وتميم الدارى ونحوهم، وقد كان المشركون من العرب يسألون أهل الكتاب ويرجعون إليهم فأرشدهم الله سبحانه فى هذه الآية إلى أن أهل الكتاب يعلمون ذلك . وقيل : المراد بالكتاب : القرآن ، ومن عنده علم منه : هم المسلمون . وقيل : من عنده علم اللوح المحفوظ ، وهو الله سبحانه ، واختار هذا الزجاج وقال : لأن الأشبه أن الله لا يستشهد على خلقه بغيره .

وقد أخرج ابن مردويه عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ فى قوله : ﴿ **ننقصها من أطرافها** ﴾ قال : « ذهاب العلماء ». وأخرج عبد الرزاق وابن أبى شيبة ونعيم بن حماد فى الفتن، وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه عن ابن عباس فى قوله : ﴿**ننقصها من أطرافها** ﴾ قال : موت علمائها وفقهائها وذهاب خيار أهلها (١) . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير عن مجاهد فى تفسير الآية قال : موت العلماء . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى الآية قال : أو لم يروا أنا نفتح لمحمد الأرض بعد الأرض . وأخرج ابن جرير وابن مردويه من طريق أخرى عنه نحوه . وأخرج سعيد بن منصور وابن أبى شيبة وابن جرير وابن

---

(١) ابن جرير ١٣/ ١١٧ وصححه الحاكم ٢/ ٣٥٠ وقال الذهبى: « فيه طلحة بن عمرو. قال أحمد: متروك ».

المنذر وابن أبى حاتم عن الضحاك فى الآية قال : يعنى : أن نبى الله ﷺ كان ينتقص له ما حوله من الأرضين ينظرون إلى ذلك فلا يعتبرون . وقال الله فى سورة الأنبياء : ﴿ نأتى الأرض ننقصها من أطرافها أفهم الغالبون ﴾ [الأنبياء: ٤٤] بل نبى الله وأصحابه هم الغالبون . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى الآية قال : نقصان أهلها وبركتها . وأخرج ابن المنذر عنه قال : إنما ننقص الأنفس والثمرات وأما الأرض فلا تنقص . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضًا قال : أو لم يروا إلى القرية تخرب حتى يكون العمران فى ناحية منها . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن مجاهد نحوه . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن زيد ﴿ **والله يحكم لا معقب لحكمه** ﴾ : ليس أحد يتعقب حكمه فيرده كما يتعقب أهل الدنيا بعضهم حكم بعض فيرده .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : قدم على رسول الله ﷺ أسقف من اليمن ، فقال رسول الله ﷺ : « هل تجدنى فى الإنجيل ؟ » قال : لا . فأنزل الله : ﴿ **قل كفى بالله شهيدا بينى وبينكم ومن عنده علم الكتاب** ﴾ يقول : عبد الله بن سلام . وأخرج ابن مردويه من طريق عبد الملك بن عمير عن جندب قال : جاء عبد الله بن سلام حتى أخذ بعضادتى [١] باب المسجد ثم قال : أنشدكم بالله أتعلمون أنى الذى أنزلت فى: ﴿ **ومن عنده علم الكتاب** ﴾ قالوا: اللهم نعم . وأخرج ابن جرير وابن مردويه من طريق أخرى عنه نحوه . وأخرج ابن جرير من طريق العوفى عن ابن عباس: ﴿ **ومن عنده علم الكتاب** ﴾ قال : هم أهل الكتاب من اليهود والنصارى . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم فى الآية قال: كان قوم من أهل الكتاب يشهدون بالحق ويعرفونه ، منهم عبد الله بن سلام ، والجارود، وتميم الدارى ، وسلمان الفارسى . وأخرج أبو يعلى وابن جرير وابن مردويه وابن عدى بسند ضعيف عن ابن عمر؛ أن النبى ﷺ قرأ: ﴿ **ومن عنده علم الكتاب** ﴾ قال: «ومن عند الله علم الكتاب»[٢] .

وأخرج أبو عبيد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس ؛ أنه كان يقرأ : ﴿**ومن عنده علم الكتاب** ﴾ يقول : ومن عند الله علم الكتاب . وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ،والنحاس فى ناسخه عن سعيد بن جبير أنه سئل عن قوله: ﴿**ومن عنده علم الكتاب** ﴾ أهو عبد الله بن سلام ؟ قال : كيف ، وهذه السورة مكية [٣] . وأخرج ابن المنذر عن الشعبى قال: ما نزل فى عبد الله بن سلام شىء من القرآن. وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى قوله : ﴿ **ومن عنده علم الكتاب** ﴾ قال : جبريل . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد قال : هو الله .

---

(١) فى المطبوعة : « بعضاضتى » والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .

(٢) أبو يعلى (٥٥٧٤) وإسناده تالف ، وابن جرير ١٣/ ١٢٠ وقال : هذا خبر ليس له أصل عند الثقات من أصحاب الزهرى » وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ١٥٨ : « وفيه سليمان بن أرقم ، وهو متروك » .

(٣) ابن جرير ١٣ / ١١٩ .